

مونتعليت



الروايات المشهورة



Arabcomics.net



موقفيت



تأليف: ج. ميد فوكز
إعداد: بهية كرم
رسوم: محمد نبيل عبدالعزیز

مكتبة لبنان
بيروت

© الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان

١٠ أ شارع حسين واصف ، ميدان المساحة ، الدقي - الجيزة
جميع الحقوق محفوظة : لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب ، أو تخزينه
أو تسجيله بأية وسيلة ، أو تصويره دون موافقة خطية من الناشر .

الطبعة الثانية
رقم الإيداع : ٢٢٨٩ / ٨٨
الترقيم الدولي : ٢-٤٧-١٤٤٥-٩٧٧ ISBN

طبع بمطابع دار المعارف - القاهرة

الفصل الأول

قرية مونفليت

تقع قرية مونفليت على الضفة الغربية لنهر فليت ، على بُعد نصف ميل من البحر . وليس النهر سوى مجرى مائي ضيق يأخذ في الاتساع ، بعيداً عن القرية ، ليكون بحيرة واسعة .

وكنْتُ في صباي أظن أن القرية سُميت باسم مونفليت لأن ضوء القمر يسطع متألقاً على البحيرة ، ثم علمت فيما بعد أن اسمها الحقيقي هو « مونفليت » نسبة إلى عائلة موهون العريقة التي كانت تقطن هذه المنطقة ، وحرف الاسم إلى « مونفليت » .

أما أنا فأدعى جون ترنشارد ، وكنْتُ أبلغ من العمر خمسة عشر عاماً عندما بدأت هذه القصة . وكنْتُ أقيم مع خالتي الأنيّة أرنولد لأنني بنيت الأبنين .

تبدأ القصة في شتاء عام ١٧٥٧ م ، حين كنت أقرأ كتاباً عن علاء الدين والمصباح السحري ، وكيف أغلق الساحر عليه الباب ، لأن علاء الدين رفض أن يسلم إليه المصباح . ذكرتني القصة بتلك الأحلام المزعجة التي يجد فيها المرء نفسه داخل حجرة صغيرة تنطبق عليه شيئاً فشيئاً .



توقفت عن القراءة وخرجت إلى الشارع . ولم يكن الظلام قد خيم بعد ، وإن كانت الشمس قد غربت . وعم الكون سكون عميق ، لم يقطعه سوى صوت طرقات خفيفة يأتي من بعيد ، فقد كان راتسي ، حارس المقابر ، يقوم بحفر اسم أحد الموتى على شاهد قبر .

كان راتسي منهمكاً في عمله ، ولما رأي أطل عليه من خلال فتحة باب بيته ، ناداني قائلاً : « أهلاً يا جون ! ادخل وأمسك لي المصباح . »

داقيد بلوك

السَّن ١٥ عامًا - قُتِل بِرِصَاصَةٍ

أُطْلِقَتْ مِنَ السَّفِينَةِ «إليكتور»

في ٢١ يونيه (حزيران) سنة ١٧٥٧ م

رَأَيْتُهُ يَنْقُشُ فَوْقَ الشَّاهِدِ صُورَةَ لِسَفِينَتَيْنِ يَتَقَاتِلُ رِجَالُهُمَا ، وَتَحْتَ الصُّورَةِ
نُقِشَتْ هَذِهِ الْعِبَارَةُ :

كَانَ الْكُلُّ يَتَحَدَّثُ عَنْ دَاقِيدِ الْمَسْكِينِ - الْإِبْنِ الْوَحِيدِ لِلزَّرْفِيرِ بُلُوكِ صَاحِبِ
نُزُلٍ « وَابْنُط » .

فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ كَانَ يَتِمُّ جَمْعُ ضَرَبِيَّةٍ بَاهِظَةٍ لِلْمَلِكِ عَنِ الْبَضَائِعِ الْوَارِدَةِ
لِلْبِلَادِ ، فَكَثُرَ الْمُهْرَبُونَ الَّذِينَ كَانُوا يَتَهَرَّبُونَ مِنْ دَفْعِهَا . وَكَانَتِ السُّفُنُ
الْمُحْمَلَةُ بِالْبَضَائِعِ تَفْرُغُ حُمُولَتَهَا فِي أَمَاكِنَ غَيْرِ مَطْرُوقَةٍ عَلَى الشَّوَابِطِ ،
وَمِنْهَا تُحْمَلُ الْبَضَائِعُ فِي صَنَادِيقَ وَبَرَامِيلَ إِلَى مَخَابِئِ دَاخِلِ الْبِلَادِ . وَكَانَ
مُحْصَلُ الضَّرَائِبِ الَّذِينَ تُعَيَّنُهُمْ حُكُومَةُ الْمَلِكِ يَعْمَلُونَ عَلَى إِيقَافِ عَمَلِيَّاتِ
التَّهْرِيبِ هَذِهِ ، يُسَاعِدُهُمْ فِي ذَلِكَ رِجَالُ خَفَرِ السَّوَاكِحِلِ .

كَانَ الزَّرْفِيرُ أَحَدَ الْمُهْرَبِينَ ، وَكَانَتْ صُورَةُ إِحْدَى السَّفِينَتَيْنِ الْمَنْقُوشَتَيْنِ

عَلَى الْقَبْرِ هِيَ صُورَةُ سَفِينَتِهِ ، عَلَى حِينِ كَانَتْ الْأُخْرَى صُورَةَ سَفِينَةِ خَفَرِ
السَّوَاكِحِلِ .

وَكَانَ أَحَدُ أَثْرِيَاءِ الْقَرْيَةِ وَيُدْعَى مَاسْكِيو قَدْ تَنَاوَلَتْهُ الْإِشَاعَاتُ الَّتِي تَقُولُ
إِنَّهُ هُوَ الَّذِي كَشَفَ لِرِجَالِ خَفَرِ السَّوَاكِحِلِ خُطَّةَ الْمُهْرَبِينَ ، وَإِنَّهُ كَانَ مَعَ خَفَرِ
السَّوَاكِحِلِ عَلَى ظَهْرِ السَّفِينَةِ حِينَ قُتِلَ دَاقِيدُ .

وَقَفَ رَأْسِي بَعِيدًا يَتَأَمَّلُ عَمَلَهُ ثُمَّ قَالَ : « كَمْ هُوَ مُحْزَنٌ أَنْ يُقْتَلَ ضَبِيٌّ فِي
مُقْبِلِ عُمْرِهِ . لَقَدْ سَمِعْتُ أَنَّ ثَلَاثَةً مِنَ الْمُهْرَبِينَ فِي السَّجْنِ يُنْتَظَرُ إِعْدَامُهُمْ
يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ الْمُقْبِلِ ، لِذَلِكَ سَأَلُونُ الْعَلَمَ بِاللُّونِ الْأَحْمَرَ وَسَاطِلِي السَّفِينَتَيْنِ
بِاللُّونِ الْأَسْوَدِ . وَالآنَ هَيَّا بِنَا إِلَى النَّزْلِ لِنَوَاسِي الزَّرْفِيرِ ، فَهُوَ غَارِقٌ فِي بَحْرِ
عَمِيقٍ مِنَ الْحُزْنِ وَالْأَسَى . »

قُلْتُ : « هَيَّا . » رَغْمَ أَنِّي كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّ خَالَتِي لَا تُوَافِقُ عَلَى دُخُولِي نُزُلٍ
« وَابْنُط » .

دَخَلْنَا النَّزْلَ وَكَانَتْ أَرْضُهُ مَفْرُوشَةً بِالرَّمْلِ ، وَرُصَّتْ حَوْلَ جُذْرَانِهَا كِرَاسٌ
خَشَبِيَّةٌ ، وَفِي جَانِبِهِ الْأَقْصَى كَانَتْ النَّارُ الْمُشْتَعِلَةُ فِي الْعِدْفَاءَةِ تَبْعَثُ الضَّوْءَ
الْوَحِيدَ فِي الْحُجْرَةِ .

جَلَسَ الزَّرْفِيرُ قُرْبَ الْعِدْفَاءَةِ ، وَكَانَ مُتَمَلِّئُ الْجِسْمِ قُوَّةً . وَكَانَتْ مَعْرِفَتِي
بِهِ قَلِيلَةً ، وَكَانَ الْكَثِيرُونَ يَتَعَجَّبُونَ مِنْ اخْتِفَاضِهِ بِإِدَارَةِ النَّزْلِ الَّذِي لَمْ يَكُنْ

يُدِرُّ عَلَيْهِ رِنْحًا كَافِيًا .

الْتَفَتَ إِلَيْنَا الزَّرْفِيرُ بِغَضَبٍ ، وَانْتَهَرَ رَأْسِي قَائِلًا : « لِمَاذَا أَحْضَرْتَ هَذَا الصَّبِيَّ إِلَى هُنَا ؟ إِنَّهُ مَا زَالَ طِفْلًا . »

أَجَابَ رَأْسِي : « جُونُ لَيْسَ طِفْلًا ، كَمَا أَنََّّهُ فِي سِنِّ دَافِيدَ ، وَقَدْ كَانَ مَعِيَ يُعَاوِنُنِي فِي نَحْتِ شَاهِدِ الْقَبْرِ . »

قَالَ الزَّرْفِيرُ : « لَا بَأْسَ . إِنْ دَافِيدُ يَرْتَقِدُ الْآنَ فِي سَلَامٍ ، وَلَكِنْ الْوَيْلُ كُلُّ الْوَيْلِ لِمَنْ قَتَلُوهُ ؛ فَلَنْ يَعْرِفُوا السَّلَامَ بَعْدَ الْآنَ أَبَدًا . » وَكَانَ دُونَ شَكٍّ يَعْنِي بِذَلِكَ السَّيِّدَ مَاسْكِو .

إِنْهَمَكَ الرُّجَالُ فِي الْحَدِيثِ . وَبَعْدَ بَرْهَةٍ الْتَفَتَ إِلَيَّ الزَّرْفِيرُ قَائِلًا : « لَقَدْ حَانَ وَقْتُ رُجُوعِكَ لِلْبَيْتِ يَا بَنِي . إِنْ ذَا اللَّحْيَةِ السُّودَاءِ يَهِيمُ فِي الطَّرِيقَاتِ لَيْلًا ، وَلَا أَحْسَبُكَ تُرِيدُ لُقْيَاهُ . »

كَانَ ذُو اللَّحْيَةِ السُّودَاءِ هَذَا - وَهُوَ أَخَذَ رِجَالَ أَسْرَةٍ مُوهُونٍ - مَذْفُونًا فِي قَبْرِ مُنْعَزِلٍ . وَكَانَتْ أَقَاوِيلُ النَّاسِ بِشَأْنِهِ كَثِيرَةً ، فَقَدْ قِيلَ إِنَّهُ لَا يَسْتَقِرُّ فِي قَبْرِهِ ، بَلْ يَهِيمُ فِي اللَّيْلِ بِاسْتِمْرَارٍ بَحْثًا عَنْ مَاسَةٍ ثَمِينَةٍ فَقَدَهَا فِي حَيَاتِهِ . وَلَمْ يَكُنْ يَجْرُو عَلَى الْاقْتِرَابِ مِنَ الْقَبْرِ ، بَعْدَ الْغُرُوبِ ، غَيْرُ عَدَدٍ قَلِيلٍ مِمَّنْ لَا يَخَافُونَ مُلَاقَاتِهِ . وَقَدْ وَجَدَ رَجُلٌ مَقْتُولٌ وَمُلْقَى فِي الطَّرِيقِ صَبِيحَةَ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الصَّيْفِ ، وَاعْتَقَدَ الْجَمِيعُ أَنَّ ذَا اللَّحْيَةِ السُّودَاءِ هُوَ الَّذِي قَتَلَهُ .

كَانَ ذُو اللَّحْيَةِ السُّودَاءِ - أَوْ جُونُ مُوهُونٍ - رَئِيسًا لِلْسَّجْنِ الَّذِي وَضَعَ فِيهِ الْمَلِكُ تَشَارِلِزَ . وَكَانَ لَدَى الْمَلِكِ مَاسَةٌ كَبِيرَةٌ وَثَمِينَةٌ ، طَلَبَهَا مِنْهُ جُونُ مُوهُونٍ نَظِيرَ أَنْ يُسَهِّلَ لَهُ الْهَرَبَ . فَسَلَّمَهُ الْمَلِكُ الْمَاسَةَ ، وَلَكِنْ جُونُ مُوهُونٍ خِنِثٌ بِوَعْدِهِ ، وَقَبَضَ عَلَيْهِ وَأَعَادَهُ إِلَى السَّجْنِ .

وَعِنْدَمَا اكْتَشِفَتِ الْمُؤَامَرَةُ ، صَدَرَ الْأَمْرُ بِسَجْنِ جُونِ مُوهُونٍ ، إِلَّا أَنَّهُ فَرَّ هَارِبًا بَعْدَ أَنْ خَبَأَ الْجَوْهَرَةَ . وَيُقَالُ إِنَّهُ لَمْ يَتِمَّكُنْ مِنَ الْعُثُورِ عَلَيْهَا فِيمَا بَعْدَ ، أَوْ لَمْ يَتِمَّكُنْ مِنَ الْوُصُولِ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي خَبَأَهَا فِيهِ ، وَلِذَا كَانَتْ رُوحُهُ نَهِيمٌ فِي الْأَرْضِ لَيْلًا سَعْيًا وَرَاءَ الْمَاسَةِ الْمَفْقُودَةِ .

كُنْتُ كَثِيرَ التَّرَدُّدِ عَلَى فِنَاءِ الْمَقَابِرِ ، حَيْثُ كَانَ مَنْظَرُ الْبَحْرِ يَبْدُو رَائِعًا مِنْ هُنَاكَ . وَلَكِنِّي كُنْتُ أَخَافُ السَّيْرَ لَيْلًا فِي هَذَا الْمَكَانِ . وَفِي سَاعَةٍ مُتَأَخِّرَةٍ فِي إِحْدَى اللَّيَالِي - وَكُنْتُ أَسْتَدْعِي الطَّبِيبَ لِخَالَتِي - أَبْصَرْتُ ضَوْءًا يَتَحَرَّكُ بَيْنَ الْقُبُورِ . إِنَّهُ لِمِنْ الْغَرِيبِ أَنْ يَدْخُلَ أَحَدُ الْمَقْبَرَةِ فِي مِثْلِ ذَلِكَ الْوَقْتِ !

الفصل الثاني

الموهون يتحركون

مَضَتْ بِضْعَةُ أَيَّامٍ عَلَى زِيَارَتِي لِتُزُلِ الْوَايِنَطِ سَاءَ خِلَالِهَا الْجَوُّ وَهَطَلَتْ
أَمْطَارُ غَزِيرَةٍ سَبَبَتْ فَيْضَانِ النَّهْرِ ، وَغَمَرَتْ الْمِيَاهُ جُزْءًا كَبِيرًا مِنَ الْقَرْيَةِ .
وَلَكِنْ الْمِيَاهُ تَوَقَّفَتْ عِنْدَ سُورِ الْمَقَابِيرِ ، فَبَقِيَتْ أَرْضُ الْفِنَاءِ جَافَّةً . وَفِي يَوْمٍ
أَحَدٍ قُبَيْلَ الْغُرُوبِ ، كُنْتُ أَسِيرُ مَعَ رَأْسِي ، فَرَأَيْنَا تَجَنُّبًا لِلْخَوْضِ فِي
الشُّوَارِعِ الْمَغْمُورَةِ بِالْمِيَاهِ - أَنْ نَعْبُرَ الْفِنَاءَ لِلْوُصُولِ إِلَى مَنْزِلِنَا . وَالتَقَيْنَا
بِالسَّيِّدِ غَلِينِي ، وَوَقَفْنَا بِجَانِبِ أَحَدِ الْقُبُورِ نَتَجَادَبُ مَعَهُ الْحَدِيثَ . وَكَانَ
الْقَبْرُ مُرْتَفِعًا مِثْلَ مَنْصُودَةٍ بَيْنَ شَجَرَتَيْنِ .

مَالَتْ الشَّمْسُ نَحْوَ الْمَغِيبِ ، وَظَهَرَتْ فِي السَّمَاءِ سُحُبٌ غَرِيبَةٌ الشَّكْلَ
تَتَخَلَّلُهَا أَشْعَةُ الشَّمْسِ الْحُمْرَاءُ ، فَشَعَرْتُ بِرَهْبَةٍ جَعَلَتْنِي أُمْسِكُ بِذِرَاعِ
رَأْسِي لِأَخْبِرَهُ بِعَزْمِي عَلَى الْعُودَةِ لِلْمَنْزِلِ . وَفَجْأَةً سَمِعْتُ صَوْتًا قِيدَنِي فِي
مَكَانِي ، وَكَانَ صَادِرًا مِنْ بَاطِنِ الْأَرْضِ ، فَصَرَخْتُ الْعَجُوزُ تَكَرَّرَ ، الَّتِي
كَانَتْ تَقِفُ مَعَنَا ، قَائِلَةً : « يَا إِلَهِي ! إِنَّهُمْ الْمَوْهُونَ ! الْمَوْهُونَ يَتَحَرَّكُونَ ! »
ثُمَّ فَرَّتْ هَارِبَةً .

قَالَ السَّيِّدُ غَلِينِي : « مَا هَذَا الْهَرَاءُ ؟ » وَبَقِيَ فِي مَكَانِهِ كَأَن شَيْئًا لَمْ
يَحْدُثْ ، وَغَلَّلَ سَبَبَ الصَّوْتِ بِوُجُودِ قُبُورٍ يَبْلُغُ اتِّسَاعُ بَعْضِهَا مِسَاحَةَ غُرْفٍ

فَسِيحَةٍ تَضُمُّ رُفَاتِ أُسْرَةٍ بِأَكْمَلِهَا ، وَقَدْ وَصَلَتْ إِلَيْهَا الْمِيَاهُ وَسَبَبَتْ تَحْرُكَ
صَوَانِدِيقِ الْمَوْتَى الْخَشَبِيَّةِ فَأَحْدَثَتْ هَذِهِ الْأَصْوَاتَ الَّتِي سَمِعْنَاهَا .

قَالَ رَأْسِي : « قَدْ تَكُونُ عَلَى حَقٍّ يَا سَيِّدُ غَلِينِي ، وَلَكِنَّهُمْ يَقُولُونَ :
« عِنْدَمَا يَتَحَرَّكُ الْمَوْهُونَ فَهَذَا يَعْنِي الْمَوْتَ لِشَخْصٍ مَا . »

قَالَ غَلِينِي : « إِذَا تَحَرَّكَ الْمَوْهُونَ فَقَدْ يَعْنِي ذَلِكَ أَشْيَاءَ عِدَّةً ، وَلَكِنَّهُمْ
فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ لَمْ يَتَحَرَّكُوا ، بَلْ حَرَّكَتَهُمُ الْمِيَاهُ . »

وَعُدْتُ لِلْمَنْزِلِ بِسُرْعَةٍ ، وَكُنْتُ أَفَكِّرُ أَثْنَاءَ الطَّرِيقِ فِي جُودِ مَوْهُونَ ، أَوْ
ذِي اللَّحْيَةِ السُّودَاءِ ، وَفِي الْمَاسَةِ الَّتِي خَبَأَهَا . رُبَّمَا خَبَأَهَا فِي قَبْرِهِ ، وَرُبَّمَا
كَانَ لَا يَزَالُ يَتَحَثُّ عَنْهَا ، لِذَلِكَ فَلِأَنَّهُ كُلَّمَا جَنَّ اللَّيْلُ هَبَّ مِنْ نَوْمِهِ بِاحِثًا عَنِ
الْمَاسَةِ الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا بَاعَ شَرَفَهُ !

وَكُلَّمَا سَيَّطَرْتُ عَلَى هَذِهِ الْأَفْكَارِ أَسْرَعْتُ خُطَايَ . تَرَى هَلْ كَانَ تَجَوَّالُهُ
مَقْصُورًا عَلَى الْمَقَابِيرِ ، أَمْ امْتَدَّ إِلَى الطَّرِيقِ وَالْحَارَاتِ ؟ ثُمَّ تَذَكَّرْتُ الرَّجُلَ
الَّذِي وَجَدَ قَتِيلًا !

فِي الْيَوْمِ التَّالِي - يَوْمِ الْإِثْنَيْنِ - عَزَمْتُ عَلَى زِيَارَةِ الْمَقْبَرَةِ ثَانِيَةً لِأَتَأَكَّدَ :
هَلْ يَتَحَرَّكُ الْمَوْهُونَ فِعْلًا ؟ وَقَرَّرْتُ أَنْ أَذْهَبَ قَبْلَ الْغُرُوبِ بِقَلِيلٍ ، أَيْ قَبْلَ
أَنْ تَكْسُوَ الْحُمْرَةُ السَّمَاءَ وَتَتَرَاكَمَ الظُّلَالُ فَتَضَعِبَ الرُّؤْيَا خِلَالَهَا .

عِنْدَمَا وَصَلْتُ إِلَى الْقَبْرِ الْمُرْتَفِعِ وَجَدْتُ رَأْسِي وَالزَّقِيرَ هُنَاكَ . وَكَانَ

رَأْسِي يَضَعُ أُذُنَهُ عَلَى الْقَبْرِ مُنْصِتًا . تَرَى مَاذَا كَانَ يَسْمَعُ ؟ وَبَدَتْ عَلَيْهِ
عَلَامَاتُ الْغَضَبِ حِينَ رَأَانِي ، فَهَمَمْتُ بِالرُّجُوعِ وَلَكِنَّهُ قَالَ : « جُؤن ! ماذا
تَفْعَلُ هُنَا فِي هَذَا الْوَقْتِ الْمُتَأَخِّرِ ؟ »

قُلْتُ : « أَتَيْتُ لِاسْتِظْلَاعِ أَخْبَارِ الْمُوهُونَ . »

رَدُّ رَأْسِي قَائِلًا : « لَيْسَ لَدَيَّ مَا أَخْبِرُكَ بِهِ ، وَأَنَا لَا أَعْتَقِدُ فِي مِثْلِ هَذِهِ
الْخَزَعِيَلَاتِ . لَقَدْ جَرَفَتِ الْمِيَاهُ التُّرْبَةَ مِنْ تَحْتِ الْحِجَارَةِ ، وَيَجِبُ أَنْ أُعِيدَ
الْأُمُورَ لِنِصَابِهَا . هَلَا تَكْرُمْتِ وَمَرَرْتِ بِمَنْزِلِي لِتُخْبِرَهُمْ بِأَنِّي سَأَتَأَخَّرُ هَذِهِ
الْلَّيْلَةَ ، لِأَنِّي مُضْطَرٌّ أَنْ أَقُومَ الْآنَ بِهَذَا الْعَمَلِ . »

أَيَقُنْتُ أَنَّهُ يُرِيدُ إِبْعَادِي عَنْ تِلْكَ الْمِنْطَقَةِ ، فَذَهَبْتُ لِمَنْزِلِهِ ، كَمَا طَلَبَ
مَنِّي . وَعِنْدَمَا تَرَكْتُ بَابَهُ رَأَيْتُهُ مُقْبِلًا عَبْرَ الطَّرِيقِ ، وَضَحِكَ عِنْدَمَا رَأَانِي .

الفصل الثالث

تَحْتَ الْأَرْضِ

كُنْتُ مُشْغُوفًا بِالْجُلُوسِ فَوْقَ ذَلِكَ الْقَبْرِ الْمُنْضَدِيِّ الْعَالِيِّ حَيْثُ يُمَكِّنُنِي
أَنْ أَرَى الْبَحْرَ وَأَرْقُبَ السُّفُنَ . كَانَ يَتَدَوَّى مِنْ كَثْرَةِ آثَارِ الْأَقْدَامِ فَوْقَ الطَّرِيقِ
الْمُؤَدِّي لِلْبَحْرِ أَنَّ هَذِهِ الْبُقْعَةَ مُحْيِيَةٌ لِغَيْرِي أَيْضًا . وَكُنْتُ قَدْ انْقَطَعْتُ عَنْ
زِيَارَةِ تِلْكَ الْمِنْطَقَةِ عِدَّةَ أَسَابِيعَ بَعْدَ مُقَابَلَتِي لِرَأْسِي وَالزَّفِيرِ هُنَاكَ ، ثُمَّ عُدْتُ
إِلَيْهَا .

وَفِي أَحَدِ الْأَيَّامِ جَلَسْتُ فِي مَكَانِي الْمُفْضَلِ أَتَطَّلُعُ إِلَى الْبَحْرِ ،
وَاسْتَمْتَعْتُ بِدِفْءِ الشَّمْسِ ، وَالْهُدُوءِ الَّذِي شَمَلَ الْكَوْنَ وَلَمْ يَتَخَلَّلْهُ سِوَى
صَوْتِ جُورْجِ الْعَجُوزِ يَشْدُو أَثْنَاءَ عَمَلِهِ عَلَى سَفْحِ التِّلِّ .

وَبِرَغْمِ شِدَّةِ الرِّيحِ كَانَ الْجَوُّ صَاحُوا مُنْذُ هُطُولِ الْأَمْطَارِ الْغَزِيرَةِ الَّتِي
خَدَّتْكُمْ عَنْهَا ، مِمَّا سَاعَدَ عَلَى أَنْ تَجِفَّ الْأَرْضُ ، وَأَنْ تَظْهَرَ تَشَقُّقَاتُ
كَثِيرَةٍ ، بَدَأَ الْمَكَانُ مَعَهَا وَكَأَنَّهُ قَدَّرَ فَخَارِيَّةَ رَدِيئَةِ الصُّنْعِ . كَذَلِكَ وَقَعَتْ
انْخِسَافَاتُ فِي الْأَرْضِ فِي بَعْضِ الْأَمَاكِنِ تَخَلَّفَتْ عَنْهَا حُفَرٌ وَتَجَاوِيفٌ .

عِنْدَمَا بَلَغَتِ السَّاعَةُ الرَّابِعَةَ فَكَّرْتُ فِي الْعُودَةِ إِلَى الْبَيْتِ ، وَلَكِنِّي سَمِعْتُ
صَوْتًا صَادِرًا مِنْ تَحْتِي - مِنَ الْقَبْرِ الَّذِي كُنْتُ أَجْلِسُ فَوْقَهُ - وَرَأَيْتُ الْأَثْرِيَّةَ تَنْهَارُ

مِنْ تَحْتِ الْحِجَارَةِ تَارِكَةً فَجْوَةً كَبِيرَةً تَتَسَبَّحُ لِذُخُولِ شَخْصٍ زَاحِفًا عَلَى قَدَمَيْهِ
وَيَذِيهِ .

وَكَأَيِّ غُلَامٍ فِي مِثْلِ سِنِّي تَغْلِبُ عَلَيْهِ الْفُضُولُ وَحُبُّ الْإِسْتِظْلَاعِ
وَالْكَشْفِ ، قَفَزْتُ مِنْ فَوْقِ الْمَقْبَرَةِ ، وَمَدَدْتُ قَدَمِي دَاخِلَ الْحُفْرَةِ ، فَإِذَا بِي
أَسْقَطُ فَوْقَ تُرْبَةِ هَشَّةٍ ، وَوَجَدْتُني أَقْفُ مُتَصِيبًا تَحْتَ الْقَبْرِ .

كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ هُنَاكَ حُجْرَةً تَحْتَ الْقَبْرِ أَنهَارَ سَقْفِهَا فَأَخَذْتُ الْفَجْوَةَ الَّتِي
رَأَيْتُهَا . وَلَكِنْ سَرْعَانَ مَا أَدْرَكْتُ خَطْمِي ، فَقَدْ رَأَيْتُ أَمَامِي سِرْدَابًا طَوِيلًا قَلِيلَ
الْأَنْجَادِ - وَطَرَبْتُ لِأَنِّي شَعَرْتُ أَنَّنِي قَدْ وَجَدْتُ مَخْبَأَ الْمَاسَةِ . وَرُحْتُ أَحْلُمُ
وَأَتَخَيَّلُ مَدَى سَعَادَتِي وَثَرَاتِي فِي الْمُسْتَقْبَلِ بَعْدَ أَنْ أَفُوزَ بِالْمَاسَةِ . وَأَذْهَشَنِي
مَا وَجَدْتُ عَلَيْهِ حَالِ السَّرْدَابِ مِنْ نَظَافَةٍ وَحُسْنِ تَهْوِيَةٍ ، وَآثَارِ الْأَقْدَامِ الْكَثِيرَةِ
الَّتِي انْطَبَعَتْ عَلَى تُرْبَةِ السَّرْدَابِ الطَّرِيَةِ .

مَشَيْتُ فِي السَّرْدَابِ مَاذَا ذِرَاعِي أَمَامِي حَتَّى لَا أَضْطَهِمُ فِي سِيرِي
بِشَيْءٍ . وَأَخَذْتُ الضُّوءَ يَضْعُفُ شَيْئًا فَشَيْئًا كُلَّمَا تَقَدَّمْتُ ، حَتَّى لَمْ أَعُدْ أَرَى غَيْرَ
قَبَسِ خَافِتٍ مِنَ النُّورِ يَنْبُعُ خَلْفِي مِنَ الْحُفْرَةِ الَّتِي دَخَلْتُ مِنْهَا . أَمَّا أَمَامِي
فَكَانَ الظُّلَامُ دَامِسًا ، مِمَّا جَعَلَنِي أَشْعُرُ بِالْخَوْفِ ؛ لِذَا خَرَجْتُ بِسُرْعَةٍ إِلَى
الْخَلَاءِ .

ثُمَّ عُدْتُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى مَنَزَلِ خَالَتِي جَرِيًّا ، فَقَدْ كَانَ وَقْتُ الْعِشَاءِ قَدْ
حَانَ . وَعَزَمْتُ فِي قَرَارَةٍ نَفْسِي أَنَّ أَعُودَ لِمِزَارَةِ ذَلِكَ السَّرْدَابِ وَمَعِيَ شَمْعَةٌ
تُنِيرُ لِي الطَّرِيقَ .

الفصل الرابع مَخْبَأُ الْمُهَرَّبِينَ

غَضِبْتُ خَالَتِي لِتَأْخُرِي ، وَلَكِنَّهَا لَمْ تَنْطِقْ بِكَلِمَةٍ أَثناءَ الْعِشَاءِ وَلَمْ أَخْبِرْهَا
بِشَيْءٍ عَنْ اكْتِشَافِي .

بَعْدَ الْعِشَاءِ هَبْتُ وَاقِفَةً وَقَالَتْ : « جُون ! لَقَدْ تَكَرَّرْتَ عَوْدَتُكَ مُتَأَخِّرًا فِي
الْمَسَاءِ ، وَهَذَا لَا يَجُوزُ لِمَنْ هُوَ فِي سِنِّكَ ؛ لِذَا لَنْ تَخْطُو خَارِجَ عَتَبَةِ الْمَنْزِلِ .
بَعْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ . إِنَّ الْفِرَاشَ لِأَمْثَالِكَ هُوَ الْمَكَانُ الْمُنَاسِبُ
فِي اللَّيْلِ . وَالْآنَ هَيَّا لِأَقْرَأْ لَكَ . »

جَلَسْتُ وَأَخَذْتُ تَقْرَأُ عَنْ نَصْرَفَاتِ أَطْفَالِ مِثَالِيْن وَعَنْ حُسْنِ الْخُلُقِ
وغير ذلك مِنَ الْقِيَمِ . وَكُنْتُ فِي شُغْلٍ شَاغِلٍ عَمَّا تَقُولُ : كُنْتُ أَفَكِّرُ فِي
ذِي اللَّحْيَةِ السُّودَاءِ ، وَفِي الْمَاسَةِ وَفِي السَّرْدَابِ . وَقُمْتُ وَخَيَّيْتُ خَالَتِي
ثُمَّ ذَهَبْتُ لِلْفِرَاشِ ، وَكَانَتْ بِلَدِّكَ آخِرَ مَرَّةٍ أَنَامُ فِيهَا عَلَى ذَلِكَ الْفِرَاشِ .

اسْتَلَقَيْتُ عَلَى سَرِيرِي دُونَ أَنْ أَخْلَعَ مَلَابِسِي ، وَبَدَأْتُ أَنْتَظِرُ . انْتَظَرْتُ
طَوِيلًا ، حَتَّى تَأَكَّدْتُ أَنَّ خَالَتِي غَارِقَةٌ فِي سُبَاتٍ عَمِيقٍ .

خَلَعْتُ حِذَائِي ، وَبِهْدوءٍ وَخَلَرٍ نَزَلْتُ الدَّرَجَ . وَأَخَذْتُ شَمْعَةً ، ثُمَّ
تَسَلَّلْتُ خَارِجَ الْمَنْزِلِ . كَانَ الْقَمَرُ سَاطِعًا ، وَكَانَ أَهْلُ الْقَرْيَةِ كُلُّهُمْ نِيَامًا ،

وَلَمْ يَكُنْ هُنَاكَ أَيُّ ضَوْءٍ سِوَى مَا كَانَ يَنْبَعِثُ مِنْ نَافِذَةٍ فِي التُّرُلِ .

سِرْتُ فِي الظُّلَامِ وَاقْتَرَنْتُ بِحَذَرٍ مِنَ النَّافِذَةِ الْمُضَاءَةِ مُحَاوِلًا أَنْ أَرَى مَا يَدُورُ بِالْإِخْلِ . وَلَمْ أَرْ شَيْئًا ، وَلَكِنِّي سَمِعْتُ أَصْوَاتًا كَثِيرَةً . وَتَسَاءَلْتُ عَمَّا يَتَحَدَّثُونَ فِي هَذَا الْوَقْتِ الْمُتَأَخِّرِ مِنَ اللَّيْلِ .

إِنْتَابَنِي الْخَوْفُ عِنْدَمَا وَصَلْتُ إِلَى الْمَقْبَرَةِ . كَانَ الْوَقْتُ وَالْمَكَانُ مُنَاسِبَيْنِ لظُهُورِ الشَّيْخِ ذِي اللَّحْيَةِ السُّودَاءِ ، وَكُنْتُ أَتَوَقَّعُ رُؤْيَاهُ بَيْنَ لَحْظَةٍ وَآخَرَى ، وَلَكِنْ الظُّلَالُ الْمُحِيطَةُ بِالْمَكَانِ ظَلَّتْ سَاكِتَةً مِنْ حَوْلِي ، وَلَمْ أَسْمَعْ سِوَى صَوْتٍ وَقَعَ قَدَمِي عَلَى الْحَشَائِشِ .

نَظَرْتُ إِلَى الْفُجْوَةِ وَوَقَّفْتُ حَائِرًا : هَلْ أَسْتَمِرُّ فِي بَحْثِي أَمْ أَعُودُ ؟ وَبَيْنَمَا أَنَا كَذَلِكَ ، أَبْصَرْتُ عِنْدَ الشَّاطِئِ قَارِبًا ، وَعَجِبْتُ مِنْ أَمْرِ ذَلِكَ الْقَارِبِ يَرْسُو فِي الْخَلِيجِ ، وَفِي وَقْتٍ مُتَأَخِّرٍ كَهَذَا . ثُمَّ أَبْصَرْتُ نُورًا أَزْرَقَ يَنْبَعِثُ مِنَ الْقَارِبِ ، وَأَدْرَكْتُ أَنَّهُ يَحْمِلُ الْمُهَرَّبِينَ . وَرَأَيْتُ بِحَارَتِهِ يَرْسِلُونَ إِشَارَةً لِشَخْصٍ مَا ، أَوْ لِأَشْخَاصٍ عَلَى الشَّاطِئِ لِيُعْلِنُوا اسْتِعْدَادَهُمْ ، فَالْقَيْتُ نَظْرَةً حَوْلِي ثُمَّ دَخَلْتُ الْفُجْوَةَ .

أَمْسَكْتُ الشُّمْعَةَ وَرَفَعْتُهَا أَمَامِي وَسِرْتُ فِي السُّرْدَابِ غَارِقًا فِي بَحْرِ مِنَ الْأَحْلَامِ . كُنْتُ أَحْلُمُ بِالْمَاسَةِ وَمَا سَتَدِيرُهُ عَلَيَّ مِنْ ثَرَاءٍ ، وَمَا سَتَجْلِبُهُ مِنْ سَعَادَةٍ . وَلاَحَظْتُ عَلَى الْأَرْضِ آثَارَ أَقْدَامٍ أَكْثَرَ مِمَّا رَأَيْتُ فِي الْمَرَّةِ



الاولى ، فحُفَّتْ أَنْ يَكُونَ أَحَدٌ غَيْرِي قَدْ سَبَقَنِي إِلَى مَكَانِ الْمَاسَةِ وَاسْتَوَلَى عَلَيْهَا . وَبِالرُّغْمِ مِنْ أَنَّ الْمَسَافَةَ لَمْ تَتَعَدَّ الْعِشْرِينَ مِثْرًا فَلَانْهَا بَدَتْ لِي وَكَانَهَا آلَافُ الْأَمْتَارِ . وَأَخِيرًا وَصَلْتُ لِجِدَارٍ حَجَرِيٍّ أَقِيمَ كَحَاجِزٍ بَعَرَضِ السُّرْدَابِ . وَكَانَ بِهِ فَتْحَةٌ تُؤَدِّي إِلَى قَاعَةٍ خَلْفَهُ أَذْرَكْتُ أَنَّهَا مَكَانٌ دَفَنِ أُسْرَةِ مُوْهُونَ .

دَخَلْتُ مِنَ الْفُتْحَةِ فَوَجَدْتَنِي فِي قَاعَةٍ فَسِيحَةٍ تَزِيدُ قَلِيلًا فِي اتِّسَاعِهَا عَنْ حُجْرَةِ الْفَصْلِ فِي الْمَدْرَسَةِ ، وَلَكِنُّهَا ثَقِيلُ ارْتِفَاعًا عَنْهَا . فَقَدْ كَانَ السَّقْفُ لَا يَغْلُو أَكْثَرَ مِنْ مِثْرَيْنِ وَنِصْفِ الْمِثْرِ عَنْ الْأَرْضِ الْمَغْطَاةِ بِالرَّمْلِ . وَفِي نِهَائِهِ الْقَاعَةِ كَانَ هُنَاكَ دَرَجٌ ، عَلَى حِينِ اخْتَوَتْ جَوَانِبُهَا عَلَى صُنَادِيقِ لِمَوْتَى وَضِعَ كُلُّ مِنْهَا فِي تَجْوِيفٍ خَاصٍّ بِالْجِدَارِ . وَفِي وَسْطِ الْحُجْرَةِ رَأَيْتُ عَدِيدًا مِنْ الْبَرَامِيلِ وَالصُّنَادِيقِ الْمُخْتَلِفَةِ الْحَجْمِ ، وَكُلُّهَا وَلَا شَكَّ تَحْتَوِي عَلَى بَضَائِعَ مُهَرَّبَةٍ .

وَهَكَذَا بَدَلًا مِنْ اكْتِشَافِ الْكَثَرِ الَّذِي كُنْتُ أَنْتَظِعُ إِلَيْهِ اكْتَشِفْتُ مَحَبًّا الْبَضَائِعِ الْمُهَرَّبَةِ دَاخِلَ مَقْبَرَةِ الْمُوْهُونِ . حِينَئِذٍ أَذْرَكْتُ أَنَّ مَا سَمِعْتَنَاهُ عَصَرَ يَوْمِ الْأَحَدِ السَّالِفِ لَمْ يَكُنْ صَوْتٌ تَحْرُكِ صُنَادِيقِ الْمَوْتَى تَحْتَ تَأْثِيرِ الْمِيَاهِ فَقَطْ ، بَلْ كَانَ تَحْرُكُ صُنَادِيقِ الْبِضَاعَةِ وَالْبَرَامِيلِ كَذَلِكَ . وَكَانَ حُضُورُ رَأْسِي فِي الْيَوْمِ التَّالِي - لَا شَكَّ - لِلَاظْمِثَانِ عَلَى أَنَّ أَحَدًا لَمْ يَكْتَشِفِ الْمَخْبَأَ . وَكَانَتْ الْعَلَامَةُ الَّتِي تَرَكْتُهَا الْمِيَاهُ عَلَى الْجِدَارِ تَصِلُ تَقْرِيبًا إِلَى

ارْتِفَاعِ نِصْفِ مِثْرٍ مِنَ السَّقْفِ .

عَاوَدْتَنِي أَخْلَامِي عَنِ الْمَاسَةِ وَكَيْفَ أَصِلُ إِلَيْهَا ، فَتَفَحَّصْتُ صُنَادِيقَ الْمَوْتَى بِدِقَّةٍ ، وَلَمْ يَكُنْ عَلَى أَكْثَرِهَا أَسْمَاءٌ . وَبَدَأْتُ أَيْئَاسٌ مِنَ الْعُثُورِ عَلَى ضَالَّتِي ، وَهَمَمْتُ بِالْعُودَةِ ، وَلَكِنِّي سَمِعْتُ وَقَعَ أَقْدَامٍ مُقْبِلَةٍ وَصَوْتِ أَشْخَاصٍ يَتَحَدَّثُونَ عَنْ بَعْدٍ ، فَتَمَلَّكَنِي الْهَلَعُ وَوَقَفْتُ مَكَانِي ثَابِتًا بِضِعْ دَقَائِقٍ مَضَتْ كَأَنَّهَا سَاعَاتٌ . وَحَتَّى يَوْمَنَا هَذَا ، وَبِالرُّغْمِ مِنْ مُرُورِ أَغْوَامٍ عَدِيدَةٍ عَلَى تِلْكَ اللَّحْظَةِ ، مَا زِلْتُ أَذْكُرُ كَيْفَ وَقَفْتُ فِي مَكَانِي وَكَأَنَّ الشَّلَلَ قَدْ أَصَابَنِي ؛ فَكُنْتُ كَتَغَلَبِ قُبُضٍ عَلَيْهِ فِي جُحْرِهِ . وَلَطَالَمَا سَمِعْتُ عَمَّا كَانَ يَفْعَلُهُ الْمُهَرَّبُونَ بِمَنْ يَكْتَشِفُ أَسْرَارَهُمْ أَوْ يَطْلُعُ عَلَى أَحْوَالِهِمْ ، وَتَذَكَّرْتُ ذَلِكَ الْمُسْكِينَ الَّذِي وَجَدْتُ جُثَّةً فِي الْمَقْبَرَةِ ، وَقِيلَ إِنَّهُ الْتَقَى بِذِي اللَّحْيَةِ السُّودَاءِ فِي اللَّيْلِ .

أَفَقْتُ مِنْ حُمُودِي عِنْدَمَا سَمِعْتُ أَحَدَهُمْ يَقْفِزُ إِلَى السُّرْدَابِ ، وَنَظَرْتُ حَوْلِي أَبْحَثُ عَنْ مَفَرٍّ ، وَلَكِنْ دُونَ جَدْوَى ثُمَّ سَمِعْتُ الرَّجُلَ الَّذِي فِي أَسْفَلِ الْفُجْوَةِ يَتَحَدَّثُ إِلَى آخَرِينَ فِي الْفِئَاءِ . وَفَجْأَةً لَمَحْتُ صُنْدُوقَ مَيِّتٍ مُعْزَلًا عَنْ بَقِيَّةِ الصُّنَادِيقِ فِي أَعْلَى الْجِدَارِ ، وَكَانَ يَرْتَفِعُ حَوَالِي مِثْرَيْنِ عَنِ الْأَرْضِ . وَسَرَّعَانِ مَا تَسَلَّقْتُ إِلَى الصُّنْدُوقِ وَاخْتَبَأْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِدَارِ ، رَافِدًا عَلَى جَنْبِي أَرَاقِبُ ضَوْءَ الشُّمُوعِ الَّتِي كَانَ يَحْمِلُهَا الرُّجَالُ ، وَالَّذِي أَخَذَ بِقُرْبِ مَنِي شَيْئًا فَشَيْئًا .

سَمِعْتُ رَأْسِي يَقُولُ : « سَأَسُدُّ الْفُجُوءَ بِحَيْثُ أَمْحُو أَثَرَهَا تَمَامًا . »

فَقَالَ آخَرُ : « حَذَارِ أَنْ يَرَاكَ أَحَدٌ وَأَنْتَ تَفْعَلُ ذَلِكَ . »

وَكَثُرَ الرُّجَالُ فِي الْغُرْفَةِ وَقَالَ أَحَدُهُمْ : « كُنْتُ فِي دُورِشِسْتَرِ مُنْذُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ، وَسَمِعْتُهُمْ يَقُولُونَ إِنَّهُمْ سَيَقُومُونَ بِإِعْدَامِ الْمُهْرَبِينَ الَّذِينَ قُبِضَ عَلَيْهِمْ فِي الصَّيْفِ . وَكَانَ مَاسْكِو أَكْثَرَ النَّاسِ حِمَاسَةً وَتَمَسُّكَ بِضُرُورَةِ الْإِعْدَامِ . »

قَالَ أَحَدُهُمْ : « آه ! مَاسْكِو ! كَمْ أَوْدُ أَنْ أَلَاقِيَهُ وَأَقْتُلَهُ ! »

وَقَالَ آخَرُ : « بُوْدِي أَنْ أَلْقَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُطْلِمَةٍ لِأَلْقَهُ دَرْسًا لَنْ يَنْسَاهُ . »

إِرْتَفَعَ صَوْتُ الزَّرْفِيرِ قَائِلًا : « كَلَّا ! كَلَّا ! مَاسْكِو هَذَا مِنْ نَصِيحِي أَنَا . هَلْ نَسِيتُمْ أَنَّهُ قَتَلَ ابْنِي ؟ دَعُوهُ لِي وَخُذِي . »

كَادَ يُغْمَى عَلَى نَتِيجَةِ فَسَادِ الْهَوَاءِ مِنْ كَثَرَةِ الْمَوْحُودِينَ ، وَكَثَرَةِ الشُّمُوعِ الْمُضَاءَةِ ، بِالإِضَافَةِ إِلَى الرُّوَاحِ الْكَرِيبَةِ .

شَعَرْتُ بِأَلَمٍ حَادٍّ فِي جَنْبِي بِسَبَبِ رُقَادِي الطَّوِيلِ عَلَى جَانِبٍ وَاحِدٍ . وَبَيْنَمَا أَنَا أَتَقَلَّبُ إِلَى الْجَانِبِ الْآخَرِ ، سَمِعْتُ أَحَدَهُمْ يَذْكُرُ اسْمِي قَائِلًا :

« ذَلِكَ الْغُلَامُ ابْنُ تَرِنْشَارْدَ كَثِيرًا مَا يَجْلِسُ عَلَى شَاهِدِ الْقَبْرِ الْعَالِيِّ يَنْتَظِعُ إِلَى النَّحْرِ ، وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ مِنَ الْقَارِبِ جَالِسًا هُنَاكَ وَقْتَ الْعُرُوبِ وَرَعْمَ أَنِّي

لَمْ أُمِيزْ مَلَامِخَ وَجْهِهِ لِبُعْدِ الْمَسَافَةِ فَإِنِّي عَرَفْتُهُ ، وَإِنِّي لِأَحْشَى أَنْ يَكُونَ جَاسُوسًا عَلَيَّأ يَذَلِّي بِمَعْلُومَاتِهِ لِمَاسْكِو . »

رَدَّ عَلَيْهِ شَخْصٌ آخَرٌ مِنْ قَرْيَةٍ قَرِيبَةٍ قَائِلًا : « أَنْتَ عَلَى حَقٍّ يَا هَذَا . كَثِيرًا مَا رَأَيْتُ ذَلِكَ الْغُلَامَ يَحُومُ حَوْلَ مَنْزِلِ مَاسْكِو - بَيْنَمَا كُنْتُ أَرَاقِبُ الْمَنْزِلَ - وَكَانَ يَسِيرُ وَهُوَ شَارِدُ الذَّهْنِ كَمُحِبٍّ وَلِهَانٍ . »

كَانَتْ تِلْكَ هِيَ الْحَقِيقَةُ ، فَكَثِيرًا مَا كُنْتُ أَسِيرُ فِي لَيَالِي الصَّيْفِ فِي الطَّرِيقِ الصَّاعِدِ إِلَى التَّلِّ خَلْفَ مَنْزِلِ مَاسْكِو ، وَذَلِكَ لِسَبَبَيْنِ : أَوَّلُهُمَا أَنَّ الطَّرِيقَ نَفْسَهُ كَانَ بَدِيعًا ، وَثَانِيَهُمَا أَنَّهُ كَانَتْ هُنَاكَ فُرْصَةٌ أَنْ أَحْظِيَ بِرُؤْيَا غَرِيسِ ابْنَةِ مَاسْكِو . وَكُنْتُ أَجْلِسُ عَنْ بُعْدٍ وَأَرَاقِبُهَا وَهِيَ تَجُوبُ أَنْحَاءَ الْحَدِيقَةِ . وَأَحْيَانًا كُنْتُ أَمُرُّ بِالقُرْبِ مِنْ نَافِذَتِهَا وَأَرْفَعُ يَدِي لَهَا بِالتَّحِيَّةِ . وَذَاتَ يَوْمٍ عَرَفْتُ أَنَّهَا مَرِيضَةٌ ، فَتَرَكْتُ الْمَدْرَسَةَ وَجَلَسْتُ طَوْلَ الْيَوْمِ فَوْقَ الْحَاجِزِ أَنْظُرُ إِلَى الْمَنْزِلِ الَّذِي رَقَدَتْ فِيهِ طَرِيحَةً الْفِرَاشِ . نَعَمْ كُنْتُ أَتَرَدَّدُ كَثِيرًا عَلَى ذَلِكَ الْمَكَانِ ، وَلَكِنْ لَيْسَ لِأَنِّي كُنْتُ جَاسُوسًا ، وَإِنَّمَا مِنْ أَجْلِ غَرِيسَ .

دَفَعَ رَأْسِي عَنِّي التُّهْمَةَ قَائِلًا : « لَا ، لَا ! ابْنُ تَرِنْشَارْدَ غُلَامٌ طَيِّبٌ ، وَكَثِيرًا مَا حَدَّثَنِي عَنْ شَغْفِهِ بِالْجُلُوسِ فِي هَذِهِ الْبُقْعَةِ لِأَنَّهُ يَرَى مِنْهَا الْبَحْرَ كُلَّهُ . »

وَأَذْهَنِي الزَّرْفِيرُ يَقُولُهُ : « جُونُ تَرِنْشَارْدَ غُلَامٌ شَجَاعٌ نَبِيلٌ . كَمْ أَتَمَنَّى لَوْ

كَانَ ابْنِي ! إِنَّهُ فِي نَفْسٍ سِنٌ دَائِدٍ ، وَأَنَا وَاثِقٌ أَنَّهُ سَيُصْبِحُ بَحَارًا مَاهِرًا عِنْدَمَا يَشِبُّ . »

وَأَشَاعَتْ كَلِمَاتُهُ هَذِهِ عَلَى بَسَاطَتِهَا الطَّرَبَ وَالسُّرُودَ فِي نَفْسِي ، فَقَدْ كَانَتْ بِهَا رَنَّةٌ صِدْقٍ وَإِخْلَاصٍ . وَكَانَ لِلزَّرْفِيرِ عِنْدِي مَكَانَةٌ حُبٍّ وَتَقْدِيرٍ ، وَكَمْ حَزِنْتُ عِنْدَمَا سَمِعْتُ نَبَأَ مَقْتَلِ أَبِيهِ .

شَعَرْتُ بِرَغْبَةٍ جَامِحَةٍ فِي أَنْ أَقْفِرَ وَأُنَادِيَ : « هَانَذَا ! » وَلَكِنِّي تَمَالَكَتُ نَفْسِي ، وَبَقِيتُ حَيْثُ أَنَا دُونَ خِرَاكِ .

كَانَ الرُّجَالُ قَدْ فَرَّغُوا مِنْ إِحْضَارِ الصُّنَادِيقِ ، وَجَلَسُوا يَتَجَادَّبُونَ أَطْرَافَ الْحَدِيثِ ، ثُمَّ بَدَأَ أَحَدُهُمْ يُغْنِي فَقَالَ الزَّرْفِيرُ : « صَبِرْ أَيُّهَا الْغَبِيُّ ! إِنَّ صَوْتَكَ كَافٍ لَأَنْ يُرْفَظَ الْقَرْيَةُ بِأَسْرِهَا . »

فَقَالَ رَأْسِي : « لَوْ اسْتَيْقَظُوا فَسَيُظَنُّونَ أَنَّ ذَا اللَّحْيَةِ السُّودَاءِ يَسْتَنْجِدُ بِالْمُوهُونِ لِيُسَاعِدُوهُ فِي الْبَحْثِ عَنِ الْمَاسَةِ . »

وَعَمَّ الصَّمْتُ بَرَهَةً ، وَكَانَ وَاضِحًا أَنَّ الزَّرْفِيرَ هُوَ رَأْسُ تِلْكَ الْحَمَاعَةِ . ثُمَّ قَالَ أَحَدُهُمْ : « إِنَّ الزَّرْفِيرَ عَلَى حَقٍّ ، فَلَقَدْ تَأَخَّرَ الْوَقْتُ ، فَلنَرْجِعْ آلَانَ إِلَى الْقَارِبِ . »

الفصل الخامس

سَجِينُ الْمَقْبَرَةِ

ذَهَبَ الرُّجَالُ ، وَبَدَأَتْ أَصْوَاءُ الشُّمُوعِ الَّتِي يَحْمِلُونَهَا تَخْفُتُ شَيْئًا فَشَيْئًا . وَكَانَ وَقَعُ أَقْدَامِهِمْ يَتَلَاشَى مَعَ ابْتِعَادِهِمْ . وَصِرْتُ وَخْدِي ، وَخْدِي مَعَ الْمَوْتَى فِي صُنَادِيْقِهِمْ يُحِيطُونَ بِي مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ! وَظَلَلْتُ أَسْمَعُ حَدِيثَ الرُّجَالِ مَدَّةَ طَوِيلَةٍ ، وَأَذْرَكْتُ أَنْ بَعْضُهُمْ مَا زَالَ فِي آخِرِ السُّرْدَابِ ، فَقَدْ كَانُوا يَنْشَاوِرُونَ فِي كَيْفِيَّةِ تَرْمِيمِ الْفَجْوَةِ بِحَيْثُ لَا يَكْتَشِفُهَا أَحَدٌ . وَلَمْ أَجْرُؤْ عَلَى تَرْكِ مَكَانِي مَا دُمْتُ أَسْمَعُ صَوْتًا .

وَلَمَّا سَكَتَتِ الْأَصْوَاتُ نَهَضْتُ ، وَقَرَّرْتُ الْعُودَةَ لِلْمَنْزِلِ دُونَ اسْتِكْمَالِ سَخِي ، فَقَدْ شَعَرْتُ بِالتَّعَبِ وَاسْتَقْتُ لِإِفْرَاشِي . وَلَكِنِّي اكْتَشَفْتُ أَنَّ دُخُولَ مَخْبِئِي أَسْهَلُ مِنَ الْخُرُوجِ مِنْهُ ، فَقَدْ كَانَ الصُّنْدُوقُ الَّذِي احْتَمَيْتُ وَرَاءَهُ بِأَلْيَا مَشًا ، فَلَمْ أَجْرُؤْ عَلَى الصُّعُودِ فَوْقَهُ . وَلَا أَذْرِي مَا الَّذِي حَدَثَ بِالضَّبْطِ ، فَقَدْ رَجَدْتُ نَفْسِي وَقَدْ سَقَطَتْ وَالشَّمْعَةُ عَلَى الْأَرْضِ ، فَمَزَدَتْ يَدِي لَاتَبْطُهَا ، وَأَمْسَكْتُ بِالصُّنْدُوقِ لِاسْتِنْدَ عَلَيْهِ ، فَإِذَا بِيَدِي تُحْتَرِّقُهُ وَإِذَا بِي أَقْعُ نَابِيَةً عَلَى الْأَرْضِ وَسَطَ كَوْمَةٍ مِنَ التُّرَابِ وَقِطْعِ الْخَشَبِ الْمُخْطَمَةِ ، وَفِي نَفْسِ الْوَقْتِ أَطْبَقْتُ يَدِي عَلَى شَيْءٍ صُلْبٍ صَغِيرٍ دَاخِلِ الصُّنْدُوقِ دُونَ أَنْ أَذْرِي كُنْهَهُ .

التَّقَطَّتِ الشَّمْعَةُ وَعَلَى ضَوْئِهَا تَفَحُّصْتُ مَا بِيَدِي ، فَوَجَدْتُهُ عُلْبَةً صَغِيرَةً
فِضِيَّةً ، وَغَمَرَنِي الْفَرَحُ إِذْ اعْتَقَدْتُ أَنِّي وَجَدْتُ الْمَاسَةَ ، وَخَاصَّةً أَنَّ
الصُّنْدُوقَ الَّذِي رَقَدْتُ بِحِوَارِهِ كَانَ يَضُمُّ رُقَاتَ ذِي اللَّحْيَةِ السُّودَاءِ ، وَكَانَتْ
الْعُلْبَةُ مَدْلَأَةً مِنْ عُنُقِهِ !

فَتَحْتُ الْعُلْبَةَ بَعْدَ جَهْدٍ ، وَكَمْ كَانَتْ صَدَمَتِي عِنْدَمَا لَمْ أَحِذْ بِدَاخِلِهَا غَيْرَ
وَرَقَةٍ صَغِيرَةٍ مَطْوِيَّةٍ . وَلَكِنْ رُبَّمَا كَانَتْ تِلْكَ الْوَرَقَةُ تَكْشِفُ مَكَانَ الْمَاسَةِ .
وَعِنْدَمَا اقْتَرَبْتُ مِنَ الشَّمْعَةِ رَأَيْتُ عَلَيْهَا بِضْعَةَ أَشْطَرٍ جَاءَ فِيهَا :

قَدْ بَحَا الْإِنْسَانُ ثَمَانِينَ عَامًا ؛

وَتَقَطَّعَ قَدَمَاهُ قَرَبَ الدُّمُوعِ ؛

قُمْ وَانْهَلْ مِنْ بَثْرِ الْمُنْعَةِ وَالْهَنَاءِ

فَالْمَوْتُ يَأْتِي مِنَ الشَّمَالِ أَوْ

الْجَنُوبِ ، فِي الظُّهيرة أَوْ الْمَسَاءِ

وَكَانَتْ مَدْيِلَةً بِإِمضاءِ جُونِ مُوهُونٍ . وَكَانَتْ بَعْضُ الْكَلِمَاتِ تَبْدَأُ بِأَحْرَفٍ
كَبِيرَةٍ وَالْبَاقِي كُلُّهُ مَكْتُوبٌ بِخَطِّ صَغِيرٍ .

وَهَكَذَا انْتَهَتْ أَحْلَامِي . وَكَانَ عَلَيَّ أَنْ أَعُودَ لِلْمَنْزِلِ رَغَمَ فَشْلِي فِي
الْعُثُورِ عَلَى الْمَاسَةِ . وَغَلَقْتُ الْعُلْبَةَ حَوْلَ عُنُقِي وَهَمَمْتُ بِالْعُودَةِ . وَمَا إِنْ
وَصَلْتُ إِلَى آخِرِ السُّرْدَابِ حَتَّى وَجَدْتُ رَأْسِي قَدْ سَدَّ الْفُجْوةَ وَغَطَّاهَا
بِالْحِجَارَةِ . وَانْطَفَأَتِ الشَّمْعَةُ . وَأَصْبَحْتُ فِي حَالَةٍ يُرْتَى لَهَا مِنَ الْخَوْفِ
وَالْأَنْزِعَاجِ . وَجَلَسْتُ أَنْتَظِرُ بُرُوعَ الْفَجْرِ ، آمِلًا أَنْ أَتِمَّكَ مِنْ إِدَالَةِ الْأَثَرِ .

وَالْأَحْجَارِ عَلَى ضَوْءِ مَا يَنْفُذُ إِلَيَّ مِنْ أَشْعَةِ النَّهَارِ .

كُنْتُ مُتَعَبًا فَعَلَّنِي النَّعَاسُ وَنِمْتُ ، وَلَمْ أَدْرِ كَمْ مِنَ الْوَقْتِ نِمْتُ ؟
وَلَكِنِّي عِنْدَمَا اسْتَيْقَظْتُ كَانَتْ الدُّنْيَا لَا تَزَالُ مُظْلِمَةً ، وَلَمْ أَشْعُرْ بِالْإِنْعَاشِ
كَمَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ بَعْدَ نَوْمٍ طَوِيلٍ . وَرَفَعْتُ بَصْرِي إِلَى أَعْلَى فَرَأَيْتُ بَصِيصًا
مِنَ النُّورِ يَتَخَلَّلُ الْحِجَارَةَ فَوْقِي ، فَأَدْرَكْتُ أَنِّي نِمْتُ يَوْمًا بِإِكْمَالِهِ ، ذَلِكَ أَنَّ
الضُّوءَ النَّافِذَ إِلَيَّ لَمْ يَكُنْ سِوَى ضَوْءِ الشَّمْسِ الْغَارِبَةِ ، الْأَمْرُ الَّذِي جَعَلَنِي
أَشْعُرُ بِالْفَرَحِ لِأَنَّ ذَلِكَ كَانَ يَعْنِي أَنَّ أَمَصِي لَيْلَةً أُخْرَى فِي الْمَكَانِ نَفْسِي .

بَدَأْتُ أَشْعُرُ بِالْجُوعِ ، فَلَمْ أَكُنْ قَدْ تَنَاوَلْتُ فِي الْآرَبَعِ وَالْعِشْرِينَ سَاعَةً
الْمَاضِيَةِ أَيُّ طَعَامٍ . كَذَلِكَ شَعُرْتُ بِالْعَطَشِ وَحَاوَلْتُ أَنْ أُزِيعَ الْحِجَارَةَ
بِأَصَابِعِي فَوَجَدْتُهَا قَدْ جَفَّتْ وَثَبَّتْ فِي مَكَانِهَا . وَبَعْدَ حَوَالِي سَاعَةٍ مِنْ
الْمُحَاوَلَاتِ الْمُضْنَةِ ارْتَمَيْتُ عَلَى الْأَرْضِ وَقَدْ تَلَاشَيْتُ آخِرَ بَصِيصٍ مِنَ
الضُّوءِ وَغَمٌّ ظَلَامٍ حَالِكٍ .

عَظُمْتُ عَيْنِي بِذِرَاعِي حَتَّى لَا أَرَى مَا حَوْلِي ، وَلَبِثْتُ بَرْهَةً طَوِيلَةً عَلَى
تِلْكَ الْحَالِ ، ثُمَّ هَبَيْتُ وَاقِفًا أَصْرُخُ بِأَعْلَى صَوْتِي طَالِبًا النُّجْدَةَ مُنَادِيًا رَأْسِي
وَالزَّفِيرَ وَغَلْبَنِي وَلَكِنْ دُونَ جَدْوَى .

حَاوَلْتُ ثَانِيَةً أَنْ أُزِيلَ الْحِجَارَةَ ، وَلَكِنْ جَانَنِي التَّوْفِيقُ ، فَسَلَّمْتُ أَمْرِي
لِلَّهِ ، وَنِمْتُ . وَلَمَّا اسْتَيْقَظْتُ أَدْرَكْتُ أَنَّ شَمْسَ الْيَوْمِ التَّالِي قَدْ أَشْرَقَتْ .
وَحَاوَلْتُ لِلْمَرَّةِ الثَّلَاثَةِ أَنْ أَفْتَحَ الْفُجُوةَ لِأَخْرُجَ وَلَكِنِّي فَشِلْتُ ، وَأَسْوَدَّتِ الدُّنْيَا
فِي عَيْنِي ، وَاعْتَرَانِي دَوَارٌ مُخِيفٌ وَوَقَعْتُ مَغْشِيًا عَلَيَّ .

الفصل السادس

في نزل الوائِنط

أَفَقْتُ فَوَجَدْتُ نَفْسِي رَاقِدًا فَوْقَ فِرَاشٍ نَظِيفٍ فِي عُرْفَةٍ تَغْمُرُهَا أَشْعَةُ
الشَّمْسِ . حَمْدًا لَكَ يَا إِلَهِي عَلَى نِعْمَتِكَ ! مَا أَخْلَى ضَوْءُ الشَّمْسِ !

طَلَسْتُ أَنِّي فِي فِرَاشِي الْمُعْتَادِ فِي مَنْزِلِ خَالَتِي ، وَأَنَّ كُلَّ مَا مَضَى لَمْ
يَكُنْ سِوَى حُلْمٍ أَوْ كَابُوسٍ . وَحَاوَلْتُ النُّهُوضَ فَلَمْ أَقْدِرْ ، فَقَدْ شَعُرْتُ
بِالْمَرَضِ وَالضَّعْفِ ، ثُمَّ شَعُرْتُ بِوُجُودِ شَيْءٍ مَا حَوْلَ عُنُقِي . وَعِنْدَمَا مَدَدْتُ
يَدِي وَجَدْتُ الْعُلْبَةَ ، وَحِينَئِذٍ أَتَقَنَّنْتُ أَنَّ كُلَّ مَا مَرَّ بِي كَانَ حَقِيقَةً لَا حُلْمًا .

فَتَحَّ البَابُ وَدَخَلَ الزَّفِيرُ بِلُوكٍ ، فَمَدَدْتُ إِلَيْهِ يَدِي وَقُلْتُ مُتَوَسِّلًا :
« أَرْجُوكَ أَنْقِذْنِي ، أَرْجُوكَ . »

فَرُبَّتْ عَلَى رَأْسِي بِعُظْفٍ وَقَالَ : « اهْذَأْ يَا فَتَى وَلَا تَخَفْ ، فَلَنْ يُؤَذِّكَ
أَحَدٌ . خُذِ اشْرَبْ . »

نَاوَلَنِي كُوبًا مِنَ اللَّبَنِ السَّاحِنِ . وَأَخْبَرَنِي وَأَنَا أَشْرَبُهُ بِأَنِّي مُوجُودٌ فِي
« نَزْلِ » . وَلَمْ يَزِدْ عَلَيَّ ذَلِكَ ، بَلْ أَمَرَنِي أَنْ أَتَمَّ ثَانِيَةً . وَوَعَدَ أَنْ يُوَافِقَنِي بِبَاقِي
الْأَخْبَارِ فِيمَا بَعْدَ .

مَضَتْ عَشْرَةُ أَيَّامٍ أَوْ أَكْثَرُ قَبْلَ أَنْ أَتَمَازِلَ لِلشُّفَاءِ وَأَسْتَرِدَّ عَافِيَتِي . وَكَانَ



إلزفير طوال تلك المدة يُعاملني بكل مخبة وحنان ، كما لو كان أمّا ترعى طفلها .

كان السيّد غلبي قد لاحظ ، في أثناء انجاسي في المقبرة ، تغيبني عن المدرسة ، فذهب يسأل عني خالتي ؛ فأخبرته بأنني قد هربت وأنها لا تعلم لي مقراً . فذهب إلى راتسي وكان هو الآخر يجهل مكاني . ورجع الجميع أنني قد هربت فوق ظهر سفينة عابرة .

وفي نفس ذلك اليوم الذي سأل فيه غلبي عني قال أخذهم في النزول إنه سمع أصواتاً عالية صادرة من المقابر وأنه ظنّها صراخ ذي اللحية السوداء .

عندما سمع إلزفير ذلك أيقن أن شخصاً ما قد أغلق عليه السرداب وأصبح سجيناً ، فذهب مع راتسي يستطلع الأمر . وهناك وجداني في حالة تقرب من الموت فأحضرائني للنزول .

حضر راتسي لزيارتي عدة مرات وقال لي مرة : « اسمع يا جود ! ليس هناك أحد غيري وغير إلزفير يعلم أنك اكتشفت سرّ المحبّين . فأياك ، إياك أن تخبر أحداً . » أمّا إلزفير فكان يعلم من نفسه أنني لن أبوح بالسرّ لذا لم يقل لي شيئاً .

بعد أن تماثلت للشفاء ذهبت إلى منزل خالتي ، ولم تكن قد حضرت لزيارتي في النزول قط أو حتى استفسرت عني أثناء مرضي . فقابلتني بخفاء وغلظة وقالت : « عذ من حيث أتيت . أغرب عن وجهي ، وعد إلى النزول حيث تحب أن تعيش . » وفاصت عيني بالدموع ، وأدّرت وجهي وتركّت البيت الذي عرفته ، ولم أعرف غيره منذ نشأتي .

عندما وصلت إلى النزول وأخبرت إلزفير بأن خالتي طردتني ظهر عليه المرح وقال : « الآن يمكن أن نقيم معاً ونصير أبنا لي بدلاً من ابني دايفد . »

وَهَكَذَا أَقَمْتُ فِي النَّزْلِ ، وَأَرْسَلْتُ لِي خَالَتِي صُنْدُوقَ مَلَابِئِي .

عِشْتُ مَعَ الزَّرْفِيرِ . وَكُنْتُ أَذْهَبُ لِلْمَدْرَسَةِ فِي الصُّبْحِ ، وَأَمْضِي بَعْدَ الظُّهْرِ أَعَاوِنُهُ فِي النَّزْلِ أَوْ فِي صَيْدِ السَّمَكِ .

كَثِيرًا مَا طَلَبْتُ مِنَ الزَّرْفِيرِ أَنْ يَصْحَبَنِي مَعَهُ فِي عَمَلِيَّاتِ التَّهْرِيبِ الَّتِي يَقُومُ بِهَا ، فَكَانَ يَرْفُضُ لِصِغَرِ سِنِّي . وَبَعْدَ فِتْرَةٍ نَدَا يَصْحَبَنِي مَعَهُ ، وَكَمْ مِنْ لَيْلَةٍ أَتَمَضَيْتُهَا فِي الْقَارِبِ ، وَلَمْ أَجْرُؤْ عَلَى دُخُولِ السَّرْدَابِ مَرَّةً ثَانِيَةً .

لَا زَمْتَنِي الْعُلْبَةُ الصَّغِيرَةُ - عُلْبَةُ جُونِ مُوهُونٍ - مُعَلِّقَةً حَوْلَ عُنُقِي ، وَقَدْ أَصْبَحْتُ لَامِعَةً بِرَاقَةٍ بَعْدَ أَنْ قُمْتُ بِتَنْظِيفِهَا . وَكَثِيرًا مَا حَاوَلْتُ مَعَ الزَّرْفِيرِ أَنْ نَحُلَّ سَطُورَهَا وَلَكِنْ دُونَ جَدْوَى .

الفصل السابع

الْمَدْبُوبُ يَسْقُطُ

فِي أَوَائِلِ الرَّبِيعِ حَضَرَ رَحُلٌ مِنْ دُورِ شِسْتَرِ ، وَعَلَّقَ عَلَى بَابِ النَّزْلِ بَيَانًا جَاءَ فِيهِ أَنَّ مَدْبُوبَ الْمَلِكِ سَوْفَ يَحْضُرُ لِرِيزَارَةِ قَرْيَةِ مُونَمِلِيَّتِ خِلَالَ أُسْبُوعٍ .

وَمَدْبُوبُ الْمَلِكِ هَذَا كَانَ رَجُلًا ذَا مَكَانَةٍ يَحْضُرُ مَرَّةً كُلَّ خَمْسَةِ أَغْوَامٍ لِيَتَفَقَّدَ أَرَاضِي الْمَلِكِ وَمُتَمَلِّكَاتِهِ . وَلَمْ يَكُنْ بِقَرْيَتِنَا شَيْءٌ مِنْ هَذِهِ الْمُتَمَلِّكَاتِ سِوَى نَزْلِ « وَائِنْتُ » أَمَّا بَاقِي الْأَرْضِ فَكَانَتْ لِلْمُوهُونِ .

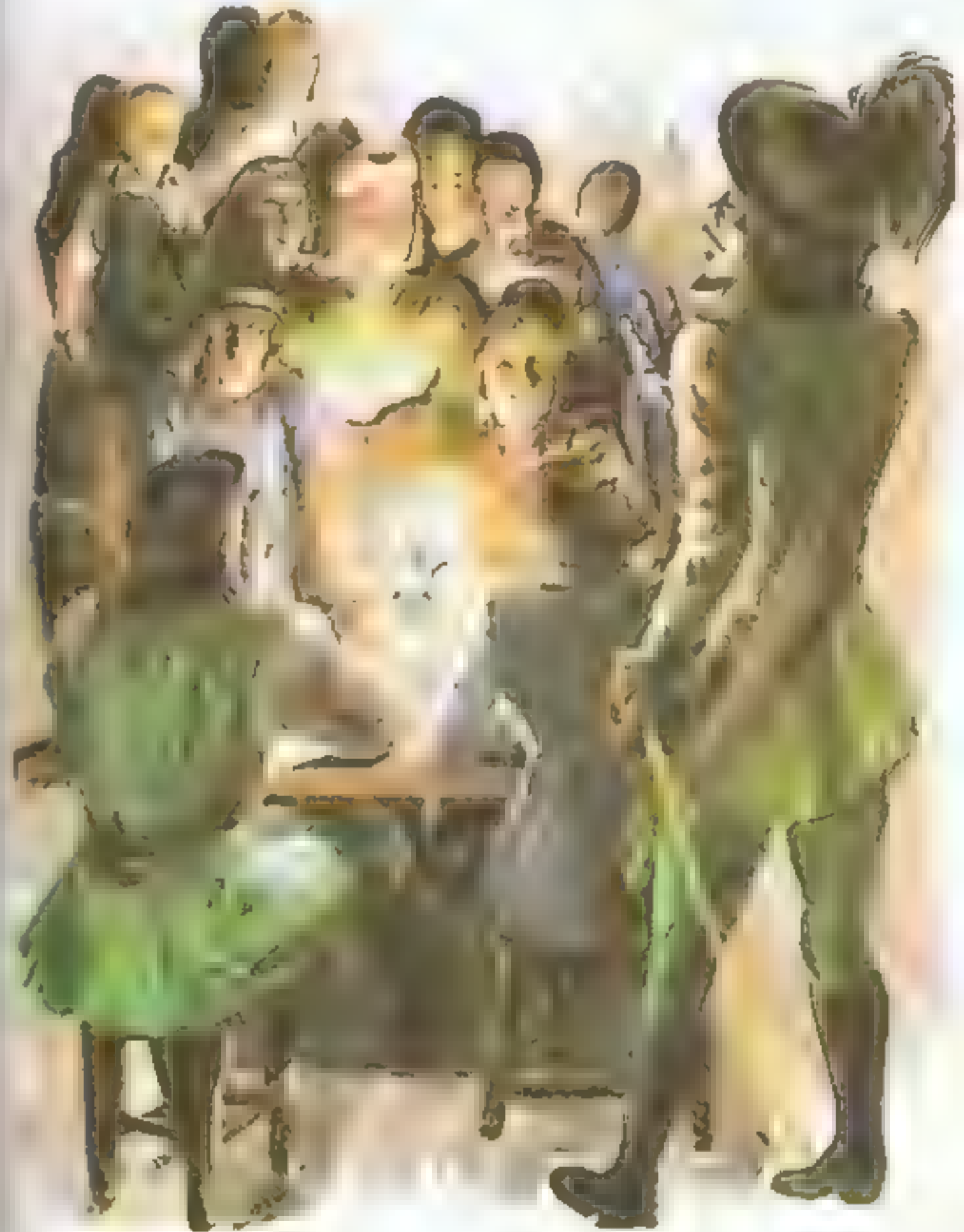
وَكَانَ يَحْضُرُ كَذَلِكَ لِيُجَدِّدَ عَقْدَ إيجَارِ النَّزْلِ ، وَيَقَرَّرَ مَنْ لَهُ الْحَقُّ فِي اسْتِغْلَالِهِ لِمُدَّةِ السَّنَوَاتِ الْخَمْسِ التَّالِيَةِ . وَكَانَ الزَّرْفِيرُ يَفُوزُ دَائِمًا بِتَجْدِيدِ عَقْدِ إيجَارِ النَّزْلِ .

وَعِنْدَمَا رَأَيْتُ الْمَدْبُوبَ مُقْبِلًا فِي الطَّرِيقِ مُتَمَطِّيًا جَوَادَهُ أَسْرَعْتُ وَأَخْبَرْتُ الزَّرْفِيرَ بِوُصُولِهِ ، فَطَلَبَ مِنِّي أَنْ أَذْهَبَ لِمَنْزِلِ خَالَتِي وَأَحْضِرَ شَمْعَةً مِنْ عِنْدِهَا . وَلَمْ أَكُنْ قَدْ وَطِئْتُ عَتَبَةَ بَابِهَا مُنْذُ أَنْ طَرَدْتَنِي ، وَأَعْطَيْتَنِي الشَّمْعَةَ وَنَمَنْتُ أَنْ تُضَيِّءَ الشَّمْعَةُ قَلْبِي وَبَصِيرَتِي .

عِنْدَمَا عُدْتُ إِلَى النَّزْلِ وَحَدَّثْتُ جَوَادَ الْمَدْبُوبِ وَاقِفًا عَلَى بَابِهِ وَحَوْلَهُ لَعِيفٌ مِنْ أَهْلِ الْقَرْيَةِ . وَكَانَ الْمَدْبُوبُ فِي الدَّخْلِ جَالِسًا يَتَنَاوَلُ وَجْبَةً طَعَامٍ شَهِيَّةً أَعَدَّهَا لَهُ الزَّرْفِيرُ .

أَحَذَ الزَّرْفِيرَ الشَّمْعَةَ مِنِّي وَنَثَّهَا فِي وَسْطِ الْمِنْضَدَةِ ، ثُمَّ قَامَ مَدْبُوبُ الْمَلِكِ

وعزز بها دثوسا على تعدد ستمترين من أغلاها . وكان العرف يقضي بأنه ما
نقى الدثوس معروسا في الشمعة المضاء يظل عطاء المزايدة مفتوحا ويكون
لأي فرد الحق في دخول المزايدة . وعندما تحترق الشمعة ويسقط الدثوس



يسقط ذلك الحق ويرسو المراد على احر شخص تقدم بغرض ويضخ النزل
له مدة السنوات الخمس التالية .

بعد أن فرغ المندوب من تناول طعامه ، أصاء الشمعة ، وندات
المساومة . وتقدم الرقير بمنع اثني عشر حنيها إبحارا سونيا للنزل
كالمعتاد .

وحلس الجميع حول المنصدة يتحدثون أطراف الحديث ويرقون لهب
الشمعة وهو يقترب نطء من مكان الدثوس . وفجأة دفع ماسكيو الباب
ودخل ، وتقدم إلى المنصدة ، فهض الرقير وقال : « يا سيد ماسكيو ،
إك لست صديقا لي ، وسيستعذني أن تعود من حيث أتيت . فانا أمضك من
الدثوس على هذه المنصدة بالذات » وأدركت مقصد الرقير من ذلك ،
فكانت هذه المنصدة هي نفسها التي رأيت دفيد ممددا عليها

التفت ماسكيو إلى المندوب وسأله : « أخبرني ماذا تم حتى الآن .
فإني أرى أنه ما زال أمامنا نحو دقيقة . وأريد أن أنتهي من هذه المهمة لأنحر
هذه أخرى في بردثورت . » فأخبره المندوب بالغرض الذي قدمه الرقير ،
فأمر بإعداد جواده عند الباب . وجلس الكل في صمت يرقون ، وفجأة
في الصمت صوت ماسكيو وهو يقول « أنا أدفع ثلاثة عشر حنيها »
فقال الرقير بصوت عال دون أن يستدير أو ينظر إلى ماسكيو : « وأنا أدفع
واحد وعشرين »

قال ماسكيو : « واحدًا وعشرين . »

وَهَكَذَا اسْتَمَرَّتِ الْمَزَايِدَةُ بَيْنَهُمَا حَتَّى أَوْصَلَهَا مَاسْكِيو إِلَى وَاحِدٍ وَتِسْعِينَ جُنَيْهَا ، وَ الشُّمْعَةُ مَا زَالَتْ تَحْتَرِقُ وَ الدُّبُوسُ مَا زَالَ مَغْرُورًا بِهَا .

قَالَ الْمَسْدُوبُ : « يَا لِلْغَبَاءِ ! مَا هَذَا الْعِنَادُ ؟ يَا سَيِّدُ بَلُوكَ ، وَفَرَّ عَلَى نَفْسِكَ الْعَنَاءَ وَ الْهَمَّ ، وَدَعِ النَّزْلَ لِهَذَا الرَّجُلِ فَإِنِّي أَرَاهُ مُصَمَّمًا عَلَى أَنْ يَفُوزَ بِهِ . وَ يُمَكِّنُنِي أَنْ أُعْطِيكَ نُزْلَ « الْفَرَسِ الْأَبْيَضِ » فِي يَرْدِ بُورْتِ ، وَهُوَ أَفْضَلُ مِنْ هَذَا النَّزْلِ بِكَثِيرٍ . »

لَمْ يُعِرَّهُ الزَّرْفِيرُ اهْتِمَامًا وَقَالَ : « مِثَّةُ جُنَيْهِ . »

قَالَ مَاسْكِيو : « مِثَّةٌ وَثَلَاثِينَ جُنَيْهِ » وَاسْتَوْنَفَ الْمَزَادَ حَتَّى قَالَ الزَّرْفِيرُ :

« مِثَّةٌ وَتِسْعِينَ جُنَيْهَا . »

فَقَالَ مَاسْكِيو : « مِثَّتِي جُنَيْهِ . » وَسَقَطَ الدُّبُوسُ .

ظَنَنْتُ أَنَّ الزَّرْفِيرَ سَيَقْضِي عَلَى مَاسْكِيو كَوُخْشٍ كَاسِرٍ ، إِلَّا أَنَّهُ نَهَضَ وَاقِفًا وَلَمْ يَنْطِقْ بِكَلِمَةٍ ، ثُمَّ جَلَسَ ثَانِيَةً فِي صَمْتٍ تَامٍ .

الْتَفَتَ الْمَسْدُوبُ إِلَى الزَّرْفِيرِ وَسَأَلَهُ : « أَتَرْغَبُ فِي اسْتِجَارِ نُزْلِ « الْفَرَسِ الْأَبْيَضِ » فِي يَرْدِ بُورْتِ ، فَالْقُرْبُ مِنْهُ مَدْرَسَةٌ صَالِحَةٌ لِأَبْنِكَ ؟ » وَأَوْمَأَ إِلَيْهِ بِوَضْعِ يَدِهِ عَلَى ذِرَاعِي ظَانًّا أَنَّنِي أَبْنُ الزَّرْفِيرِ .

فَرَدَّ الزَّرْفِيرُ قَائِلًا : « شُكْرًا يَا سَيِّدِي . إِنِّي حِينَ أَغَادِرُ هَذَا الْمَكَانَ فَلَنْ أَدِيرَ أَيَّ نُزْلٍ آخَرَ . »

وَرَحَلَ الْمَسْدُوبُ وَجَلَسَ الزَّرْفِيرُ وَاضِعًا رَأْسَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ عَلَى الْمِنْضَدَةِ .

الفصل الثامن

مُتَلَصِّصٌ بِالْبَابِ

قَابَلَ أَهْلَ الْقَرْيَةِ مَاسْكِيوَ أَيَّمَا حُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ بِنَظَرَاتِ الْبُغْضِ وَ الْكِرَاهِيَةِ ، فَاعْتَكَفَ فِي دَارِهِ أَيَّامًا . وَقَالَ الْبُغْضُ إِنَّهُمْ رَأَوْهُ يَذْهَبُ إِلَى وَنْمَاوِثَ لِيقَابِلَ مُحْصَلِي ضَرَائِبِ الدَّوْلَةِ ، وَ إِنَّهُ فَعَلَ ذَلِكَ كَيْ يَتَّفِقَ مَعَهُمْ عَلَى إِرسَالِ رِجَالِهِمْ لِيَضْبِطَ الْمُتَهَرِّبِينَ .

وَصَلَتْ هَذِهِ الْأَنْبَاءُ إِلَى سَمْعِ الزَّرْفِيرِ ، فَأَوْقَفَ عَمَلِيَّاتِ التُّهْرِيبِ الَّتِي كَانَ يَسُومُ بِهَا - بَعْضَ الْوَقْتِ - حَتَّى كَانَ ذَاتَ مَسَاءٍ أَخْبَرَنِي فِيهِ أَنَّ هُنَاكَ شِخْنَةً مِنْ الْبَصَائِعِ تَنْتَظِرُ فِي سَانَتِ مَالُو وَ لَا يُمَكِّنُ الْإِحْتِفَاطُ بِهَا هُنَاكَ مُدَّةً أَطْوَلَ مِنْ رَاكٍ . وَلَأنَّ عُيُونَ مَاسْكِيوَ كَانَتْ مُشْتَّةً فِي كُلِّ مَكَانٍ وَ لَا تَكُفُّ عَنْ مُرَاقَبَتِنَا ، كَانَ مِنْ غَيْرِ الْمُمَكِّنِ جَلْبُ الْبَصَائِعِ إِلَى مَوْفِلِيَّتِ ؛ لِذَا أَمَرَ سَفِينَةَ الْبُونَا فَنَشَرَ أَيْ تَحْمِلُ تِلْكَ الْبَصَائِعَ أَنْ تَتَوَجَّهَ شِمَالًا إِلَى مَكَانٍ يُدْعَى بِأَيْغُرُوفِ هُولِ الْمَرْبِ مِنْ هُورْهَذِ . وَقَدْ طَلَّ الرُّجَالُ يَسْتَعْمِلُونَ ذَلِكَ الْمَكَانَ كَمَخْبِئَةٍ عِدَّةَ سِنِينَ قَبْلَ اسْتِعْمَالِ مَقْبَرَةِ ذِي اللَّحْيَةِ السُّودَاءِ .

قَالَ : « يَجِبُ أَنْ نَكُونَ هُنَاكَ فِي هُورْهَذِ مُسْتَعِدِّينَ بِحَيَادِنَا فِي السَّاعَةِ الْخَامِسَةِ مِنْ صَبَاحِ الْغَدِ ، وَ كُنْتُ أَتَمْنَى لَوْ بَكَّرْنَا عَنْ ذَلِكَ لِأَنَّ الشَّمْسَ تُشْرِقُ فِي الْخَامِسَةِ ، وَلَكِنَّ السَّفِينَةَ لَا يُمَكِّنُ أَنْ تَصِلَ قَبْلَ ذَلِكَ الْحَيْسِ . »

وَيَتِمَّا كَانَ يَتَكَلَّمُ شَعْرَتُ بِهِوَاءٍ بَارِدٍ يَلْفَحُ ظَهْرِي ، فَلَقْتُ حَوْلِي لِأَرَى هَلْ هُنَاكَ نَافِذَةٌ مَفْتُوحَةٌ فَلَمْ أَجِدْ . وَلَمْ أَسْتَطِعْ رُؤْيَةَ الْبَابِ مِنْ مَكَانِي ، فَتَهَضَّتْ وَذَهَبَتْ نَحْوَ الْبَابِ فَلَمَحَتْهُ يَتَحَرَّكُ فَأَسْرَعْتُ بِفَتْحِهِ وَخَرَجْتُ إِلَى الطَّرِيقِ ، وَلَكِنْ الطَّلَامَ كَانَ دَامِسًا ، فَلَمْ أَسْمَعْ سِوَى صَوْتِ الْأَمْوَاجِ مِنْ بَعْدِ ، لِذَلِكَ عُدْتُ إِلَى الْغُرْفَةِ .

سَأَلَنِي الرَّقِيرُ : « مَا الْخَبْرُ ؟ »

أَجَبْتُ : « لَقَدْ تَخَيَّلْتُ شَخْصًا يَسْتَرِيقُ السَّمْعَ بِالْبَابِ . أَلَمْ تَشْعُرْ بِنَسْمَةِ هَوَاءٍ بَارِدَةٍ كَانَتْ تَهْتَ عَلَيَّ مِنْ نَاحِيَةِ الْبَابِ ؟ »
قَالَ : « لَا ، وَلَكِنْ الْجَوُّ اللَّيْلَةُ بَارِدٌ وَلَا شَكَّ . »

قُلْتُ : « مَا زِلْتُ عَيْرٌ مُقْتَعِرٌ ، قَدْ يَكُونُ هَاكَ شَخْصٌ يَتَحَسَّسُ عَلَيْنَا يَحْسُسُ بِنَا أَنْ نَأْخُذَ الشَّمْعَةَ وَنُقَشَّ الْمَكَانَ لِنَتَّأَكَّدَ مِنْ خُلُوهِ . »

قَالَ الرَّقِيرُ : « لَا تَقْلُقْ ، فَالْهَوَاءُ الْبَارِدُ هُوَ الَّذِي دَفَعَ الْبَابَ . وَلَكِنْ أَفْعَلْ مَا تُرِيدُ . »

أَحْدَثْنَا الشَّمْعَةَ وَطُفْنَا بِالْمَكَانِ وَنَمْ نَقِفُ لِأَحَدٍ عَلَى أَثَرٍ ، فَصَحَكَ الرَّقِيرُ وَعَاوَدْنَا حَدِيثَنَا .

قَالَ : « لَمْ يَبْقَ لَنَا فِي هَذَا الْمَكَانِ سِوَى أَشْبُوغَتَيْنِ ، وَكَمْ يُخْرِسُنِي أَنْ أَرَى هَذِهِ الْأَبْوَابَ مَوْصَدَةً فِي وَجْهِي نَعْدُ أَنْ أَقْصَيْتُ وَعَائِلَتِي فِي الْمَكَانِ مَا يَرِيدُ . »

عَنْ مِثْلَةِ عَامٍ . وَلَكِنْ مَا بِالْيَدِ حِيلَةٌ ، غَدًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ نَخْتُ عَنْ مَنَزَلِ قُرْبِ الْخَرِّ بِالْقُرْبِ مِنْ بَايَعُرُوفِ هُولَ . إِنْ بَايَعُرُوفِ هُولَ كَهْفٌ كَبِيرٌ سَنَجِدُ فِيهِ مُسْعَا لِبَضَائِعِنَا ، وَقَدْ اسْتَعْمَلَهُ الْمُهَرَّبُونَ عَلَى مَدَى مِثَالِ السَّيْنِ . »

كُنْتُ أَفَكِّرُ فِي أُمُورٍ أُخْرَى ، وَلَمْ أُجِبْهُ فَقَالَ : « أَنْتَ مُتَعَبٌ يَا فَتَى ! اذْهَبْ إِلَى فِرَاشِكَ ، فَعَدَا لَنْ نَنَامَ إِلَّا قَلِيلًا . »

كُنْتُ مُتَعَبًا حَقًّا كَمَا قَالَ الرَّقِيرُ ، وَلَكِنِّي لَمْ أَلَمْ فَقَدْ شَعْرْتُ بِالْحُرُونِ الْمَادِرَةِ قَرْيَةِ مَوْنَفَلِيَّتِ وَتَرَكَ غَرِيْسَ مَاسْكِيو . وَمَعَ أُنْسِي كُنْتُ صَبِيًّا فَقَدْ كُنْتُ إِذْ نَعْلَمًا بِهَا ، يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ ، وَأَهْيَمُ بِهَا الْهَيْامُ الَّذِي يَقْوَى عَلَيْهِ فَتَى فِي الْمَسِي . وَكَانَتْ عَالِمَةً بِكُلِّ أَسْرَارِي ، وَقَدْ أَخْبَرَتْهَا سِرَّ السَّرْدَابِ وَمَخْبَأِ الْمَهْرِسِ ، لِأَنِّي كُنْتُ وَائِفًا أَنَّهَا لَنْ تَوَحَّ بِأَسْرَارِي لِأَحَدٍ قَطُّ ، حَتَّى لَا يَبْهَرُ . مَا سَمِعْتُ عَنْ الْمُهَرَّبِينَ قَالَتْ :

« اسْمَعْ يَا حُود ، سَأَضَعُ دَائِمًا شَمْعَةَ مُصَاءَةٍ فِي بَاعِدِنِي طَوَارِ بِيَالِي ، وَنَدُو كَمَارَةً لِلسُّفْسُفِ الَّتِي تَعْرِ الْخَرَّ ، وَتَرَاهَا أُنْتُ . »

« قَدْ وَفَّتْ بَوْعُهَا وَرَأَى كَثِيرُونَ الشَّمْعَةَ الْمُصَاءَةَ فَاطْنَقُوا عَلَيْهَا أَسْمَ مَارَةَ مَاسْكِيو » وَلَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ سَبَبَ إِقَامَتِهَا أَحَدٌ سِوَايَ .

« عِنْدَمَا وَحَدْتُ نَفْسِي عَلَى أَهْمَةِ الرَّحِيلِ ، الَّذِي قَدْ يَكُونُ لِلْأَمْدِ ، قَرَّرْتُ أَنْ أَدْعِيَ غَرِيْسَ لِأَوْدَعِهَا وَأَخْبِرَهَا بِعَرْمِي عَلَى السَّهْرِ . »

الفصل التاسع

غريس ماشكيو

لَنْ أَنْسى اليَوْمَ التَّالِيَّ مَا حَيِّتُ . فَقَدْ ذَهَبْتُ إِلَى غَابَةِ الْقَصْرِ بِالْقُرْبِ مِنْ
مَنْزِلِ غَرِيسَ ، فَوَحَّدْتُ تَجْوِيفًا صَغِيرًا عَلَى سَفْحِ التَّلِّ الْمُجَاوِرِ لِلْمَنْزِلِ ،
يَتَسَبَّعُ لِبُغْلَامٍ فِي حَجْمِي كَيْ يَرْتَقِدَ فِيهِ ، وَلَكِنْ لَيْسَ مِنَ الْعُمُقِ بِحَيْثُ يَحُولُ
دُونَ النَّظَرِ مِنْهُ . فَرَقَدْتُ هُنَاكَ وَانْتَهَرْتُ .

كَانَ الْيَوْمُ صَحْوًا ، وَأَشِعَّةُ الشَّمْسِ دَافِئَةً ، وَالرِّيَّاحُ سَاكِئَةً . وَاسْتَطَعْتُ
أَنْ أَرَى مِنْ مَكَانِي سُحْبَ الْغُبَارِ الْمُتَصَاعِدَةِ خَلْفَ الْعَرَبَاتِ الْمَارَةِ عَلَى
الطَّرِيقِ . وَبَدَتْ فُرُوعُ الْأَشْجَارِ مُورِقَةً ، وَبَرَاعِمُ الْأَزْهَارِ الْبَرِّيَّةِ مُتَفَتِّحَةً .
فَتَحْتُ الْعُلْبَةَ الْمُعْلَقَةَ فِي رَقَبَتِي ، وَأَخَذْتُ أَقْرَأَ بِإِمْعَانٍ الْمَكْتُوبَ فِي الْوَرَقَةِ :

قَدْ يَحْيَا الْإِنْسَانُ ثَمَانِينَ عَامًا . . .

ضَحِكْتُ مِنْ نَفْسِي ، كَمْ كُنْتُ أَلْتَمِسُ حِينَ تَوَقَّعْتُ أَنْ أَجِدَ الْأَلْمَاسَ
وَصَنَادِيقَ الذَّهَبِ ! وَمَعَ ذَلِكَ فَالْمَاسَةُ مُحْفُوظَةٌ فِي مَكَانٍ مَا ، وَلَكِنْ أَيْنَ ؟
خَدَّثَنِي غَرِيسَ عَنْ اعْتِزَامِ الزَّرْفِيرِ تَرْكُ نَزْلِ « وَابِط » . وَلَمْ تَذْكُرْ أَبَاهَا
سُوءَ ، وَلَكِنْ بَدَأَ عَلَى وَجْهِهَا أَنَّهَا تَتَأَلَّمُ مِنْ تَصَرُّفَاتِهِ . كَمَا أَظْهَرَتْ حُزْنَهَا
لِرَحِيلِي ، وَقَدْ سَعِدْتُ لِمَا بَدَأَ عَلَيْهَا مِنْ حُزْنٍ وَأَسَى لِأَنِّي تَأَكَّدْتُ وَقْتُهَا مِنْ
شُعُورِهَا نَحْوِي .

قَالَتْ غَرِيسَ : « أَمْسَ فِي نَحْوِ التَّاسِعَةِ (وَكَانَ ذَلِكَ فِي نَفْسِ الْوَقْتِ
الَّذِي كُنْتُ أَتَحَدَّثُ فِيهِ مَعَ الزَّرْفِيرِ) هَبْ وَالِدِي مِنْ مَكَانِهِ قَائِلًا : « سَأَخْرِجُ إِلَى
الْحَدِيقَةِ أَسْتَنَشِقُ الْهَوَاءَ . وَأَنَارَ ذَلِكَ دَهْشَتِي لِأَنَّ اللَّيْلَةَ كَانَتْ شَدِيدَةً
الرُّودَةَ ، عَاصِفَةً الرِّيَّاحَ . وَعَادَ بَعْدَ خَوَالِي سَاعَةٍ وَأَخْبَرَنِي أَنَّهُ سَيَرْحَلُ فِي
الْحَالِ إِلَى وَيْمَاوْثَ عَلَى أَنْ يَعُودَ بَعْدَ يَوْمَيْنِ . وَأَخَذَ مِغْطَمَهُ وَقَبَّعَتْهُ
وَمَضَى . »

رَوَتْ غَرِيسَ هَذَا ، وَهِيَ مُتَعَجِّبَةٌ مِنْ تَصَرُّفَاتِ وَالِدِهَا . أَمَّا أَنَا فَقَدْ أَنَارَ
حَدِيثُهَا الْخَوْفَ فِي نَفْسِي . تُرَى مَا السَّبَبُ فِي ذَهَابِ مَاشْكِو الْمُفَاجِئِ إِلَى
وَيْمَاوْثَ ؟

تَرَكَتَنِي غَرِيسَ ، وَكَانَ الْوَقْتُ مُتَأَخِّرًا حِينَ عُدْتُ لِلنَّزْلِ ، وَقَدْ امْتَلَأَ
سَدْرِي بِالْأَسَى ، وَأَثْقَلَهُ الْهَمُّ وَالْحُزْنُ ، وَشَعَرْتُ بِأَنِّي مُقْبِلٌ عَلَى أَيَّامٍ حَافِلَةٍ
بِالْمَتَاعِبِ وَالْعُقَابِ .

الفصل العاشر

القبض على ماسكيو

تركنا الزل ، مع الزفير ، قبل الميعاد الذي سبق اتفاقنا عليه ، لأن أخبارنا وصلتنا من أحد بخارة السفينة نسيًا بأن ميعاد وصولها قد تقدم ساعتين .

كانت الساعة السابعة عندما وصلنا إلى قمة الثل ، الذي يتعد خمسة عشر ميلاً عن هورهد . وأدركنا الطلأم بعد مسيرة نصف ساعة ، إلا أن الليلة كانت مغمرة نوعاً ما أكثر من سابقتها ، وكان السيم علباً والسماء صافية وقد سلكنا الطريق في صمتٍ مُسترشدين ، بالحجارة البيضاء التي وضعها مُحصلو صرائب الدولة ، كعلامات ، على الطريق . ووصلنا إلى قمة هورهد وهي أعلى بقعة على لشاطيء . وفي القمة والشاطيء جُرفٌ صخري شديد الانحدار يستحيل تسلقه لكن يخرق ذلك الجُرف ممرٌ متعرج يمكنُ سلوكه سَطً . وقد سلكنا ذلك الممر دالين ، فوصلنا الشاطيء بعد خمس عشرة دقيقة .

لَمْ نَكُنْ وحدنا ، فقد رأيتُ هناك حوالي عشرين رجلاً ، البعض واقف على الرمال ، والبعض على الصخور ، كما كان بعضهم ممسكاً بالحبال . وكانوا يتحدثون بأصوات خافتة وحسناً ، ولم يطل انتظارنا ، فقد أقبل علينا شخصٌ ، وإذ به رائسي .

قال : « كُنْتُ أحياناً أفكر أن أفجر القرية يا الزفير ، ولكن إذا فعلتُ ، فمن يُعنى بالقبور بقدي ؟ »

وَكُنْتُ نصف نائم . وقلتُ له : « سوف يحدون من يحل محلّك »

جلس رائسي بجاني ، وأحد يتحدث ، إلا أنني لم أعره التفاتاً ، إذ كُنْتُ أسفر بالنعاس . و فجأة سمعنا صيحة تدوي في الفضاء فهضاً جميعاً ونحنا نحو الشاطيء صامتين .

وحدنا أول قارب قد وصل إلى الشاطيء هدأنا في تفرغ ما عليه من صنّاع . وكان مشهداً عجباً ، فالرجال يتحركون خيفةً وذهاباً ، في الضوء



الذَّهَبِيَّ لِلْمَصَابِيحِ الَّتِي أَنَارَتْ لَهُمُ الطَّرِيقَ ، وَهُمْ يَحْمِلُونَ الْبُضَائِعَ مِنَ الْقَوَارِبِ وَيَضَعُونَهَا عَلَى ظُهُورِ الْجِيَادِ الْوَاقِفَةِ .

بَعْدَ مُضِيِّ سَاعَتَيْنِ ، كَانَ الرُّجَالُ قَدْ انْتَهَوْا مِنْ نَقْلِ الْحُمُولَةِ وَبَدَأَتْ الْجِيَادُ تَتَحَرَّكُ ، بَعْضُهَا مَحْمَلٌ بِالصَّنَادِيقِ وَالْبَعْضُ بِالْبِرَامِيلِ . وَبَدَأُوا فِي صُعودِ الطَّرِيقِ إِلَى الْقِمَّةِ . وَعِنْدَمَا وَصَلَتْ إِلَى بَدَايَةِ الطَّرِيقِ لَمَحَتْ شَيْئًا يَتَحَرَّكُ خَلْفَ شَجَرَةٍ ، كَمَا لَمَحَ ذَلِكَ غَيْرِي . وَبَدَأَ الرُّجَالُ يَصْرُخُونَ ، ثُمَّ رَأَيْتُ شَخْصًا يَغْدُو هَارِبًا ، وَفِي أَثَرِهِ عِدَّةُ رِجَالٍ ، كَانُوا قَدْ وَضَعُوا أَحْمَالَهُمْ عَلَى الْأَرْضِ وَأَسْرَعُوا خَلْفَهُ .

وَكَانَ أَقْرَبُ الرُّجَالِ إِلَيْهِ دَامِنٌ ، وَحَارَتْ . وَكُنْتُ أَشْتَطِيعُ رُؤْيَا الرُّجُلِ الَّذِي يَجْرِي مِنْهُمَا . وَكَانَ يَجْرِي بِسُرْعَةٍ لَمْ أَكُنْ أَتَصَوَّرُ أَنَّهَا مُمَكِنَةٌ .

ثُمَّ أَذْرَكْتُ لِمَاذَا كَانَ يَجْرِي بِهَذِهِ السَّرْعَةِ . إِنَّهُ كَانَ يَجْرِي لِلنَّجَاةِ بِحَيَاتِهِ لَقَدْ كَانَ الْمَوْتُ نَصِيبَهُ إِذَا قُبِضَ عَلَيْهِ . وَنَظَرْتُ إِلَيْهِ . . . كَانَ مَا سَكِيو . وَأَسْتَمَرُّ مُنْطَلِقًا ، وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ أَمَلٌ فِي نَجَاتِهِ : فَقَدْ كَانَ دَامِنٌ ، وَجَارَتْ أَسْرَعَ الْعَدَائَيْنِ فِي هَذِهِ الْمَنْطِقَةِ مِنْ بِلَادِنَا .

وَوَقَفْنَا حَمِيْعًا حَتَّى وَقَعَ الرَّجُلُ فِي يَدِ مُتَعَقِبَيْهِ وَتَظَلَّعَتْ إِلَى وَجْهِ الزَّرْفِيرِ . لَقَدْ كَانَ يَتَرَقَّبُ ذَلِكَ ، وَكَانَ فِي أَنْتِظَارِهِ ، وَقَدْ وَقَعَ مَا كَانَ يَنْتَظِرُهُ . وَكَانَ قَدْ قَرَّرَ مَا سَيَفْعَلُهُ . لَقَدْ قَرَأْتُ فِي وَجْهِهِ كَلِمَةَ الْمَوْتِ - الْمَوْتِ لِمَا سَكِيو

سَمِعْتُ صَرْخَةً خَافَتَهُ ، ثُمَّ رَأَيْتُ الرَّجُلَيْنِ عَائِدَيْنِ وَبَيْنَهُمَا مَا سَكِيو يَجْرِيهِ مِنْ ذِرَاعَيْهِ . أَصَابَنِي عَثِيَانٌ مِنْ ذَلِكَ الْمَنْظَرِ ، فَقَدْ كَانَتْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَرَى فِيهَا رَجُلًا يُعَامَلُ هَكَذَا . وَقَدْ سَقَطَتْ قُتْعَتُهُ وَتَدَلَّى شَعْرُهُ فَوْقَ وَجْهِهِ الشَّاحِبِ ، وَتَعَالَتْ الْأَصْوَاتُ غَاصَّةٌ تُنَادِي « أَطْلِقُوا عَلَيْهِ النَّارَ » وَيَقُولُ آخَرُونَ : « أَشَقُّوهُ » ، اقْدِفُوا بِهِ مِنْ أَعْلَى الْجُرْفِ إِلَى الْقَاعِ . « وَأَبْصَرَ أَحَدُهُمْ مُسَدَّسًا نَحْتِ مَعْطَفِ مَا سَكِيو ، فَانْتَرَعَهُ وَرَمَى بِهِ عِنْدَ قَدَمِي الزَّرْفِيرِ . حِينَئِذٍ عَلَا صَوْتُ الزَّرْفِيرِ فَوْقَ الْجَمِيعِ أَمْرًا : « لَا يَلْمُسُهُ أَحَدٌ مِنْكُمْ . أَلَا تَعْلَمُونَ أَنَّهُ قَاتِلُ أَبِي ؟ ! أَوْثَقُوا يَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ وَأَتْرَكُوهُ لِي وَخُذِي وَأَدْهَبُوا . » لَمْ يَبْقَ غَيْرُ لِحَظَاتٍ فَصِيرَةٍ عَلَى شُرُوقِ الشَّمْسِ ، وَتَحَرَّكَ الرِّجَالُ حَمِيفُهُمْ بِحَيَادِهِمْ ، وَبَقِينَا بَحْنُ الثَّلَاثَةِ وَخُذْنَا : مَا سَكِيو وَالزَّرْفِيرِ ، وَأَنَا وَكَانَ الْمُسَدَّسُ عَلَى الْأَرْضِ عِنْدَ قَدَمِي الزَّرْفِيرِ .

الفصل الحادي عشر

موت ماشكيو

خوفاً من الفء ورؤية بهاية ماشكيو هممت بأن الحق بالرحال ، لكن
الرقيب يداعي قائلاً « انتظر يا حنون ، هذا أحتاج إليك فيما بعد » وانتظرت
دون أن أدري كيف يمكن أن يحتاج إلي ؟ يحتاج إلي في ماذا ؟

جلس ماشكيو موثقاً على الأرض ، وظهره إلى الصخرة ، وكان شاحب
اللون منكس الرأس ، على حين وقف الرقيب امامه ، ممسكاً بمضاح ،
ومحملاً في وجهه .

كما سمع وقع حوافر الحيل على أرض الممر ، تحت الأحمال
لثقيلة وتلاشت أصوات وقع الأقدام الذهبية شيئاً فشيئاً ، فأزداد الشكون
وعمت الرهبة ، ولم يكف الرقيب عن النظر إلى وجه ماشكيو الشاحب .

وقال ماشكيو للرقيب : « أنا صايط قصني ، وحتماً سيغدموك إن لم
تطلق سراحني وتركنني . »

وبالرغم من أن كلمته كانت كلمات طويلة وشجاعة ، فقد كانت - فيما
يبدو - مجرد تظاهر بالشجاعة ، فإن صوته كان يرتحف رُعماً .

رد عليه الرقيب وكأنه قض يحاكم مجرمًا . « لا تحدثني عن الإعدام . »

فَلَنْ تَكُونَ سَبِيًّا فِي إِعْدَامِ أَحَدٍ وَلَنْ تَرَى أَحَدًا يُعَذِّمُ بَعْدَ الْآنِ . أَتَذْكُرُ يَوْمَ وَقَفْتَ تَرَاقِبُ الشَّمْعَةَ تَحْتَرِقُ وَالدُّبُّوسُ يَسْقُطُ لِتَطْرُدَنِي مِنْ بَيْتِي ؟ الْيَوْمَ سَتُرَاقِبُ شَمْعَةً أُخْرَى تَحْتَرِقُ وَدُبُّوسًا آخَرَ يَسْقُطُ . وَعِنْدَمَا يَسْقُطُ سَأُطْلِقُ رِصَاصَةً مِنْ مُسَدِّسِكَ عَلَى رَأْسِكَ وَأَقْتُلُكَ كَمَا لَوْ كُنْتَ وَخْشًا كَاسِرًا .

أَخَذَ الزَّرْفِيرُ شَمْعَةً وَثَبَّتَ فِيهَا دُبُّوسًا عَلَى مَسَافَةٍ بُوصَةٍ مِنْ أَغْلَاهَا ، وَثَبَّتَ الشَّمْعَةَ فَوْقَ الْحَشَائِشِ أَمَامَ مَاسْكِيو وَوَقَفَ يَنْتَظِرُ .

لَمْ أَكُنْ أَحِبُّ مَاسْكِيو ، وَلَوْ سُئِلْتُ مِنْذُ سَاعَةٍ عَنْ رَأْيِي لَقُلْتُ إِنَّهُ يَسْتَحِقُّ الْقَتْلَ . وَلَكِنِّي فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ ، أَخَذْتُ أَتَهَلُّ إِلَى اللَّهِ ، فِي سَرِيرَتِي ، أَنْ يُتِيحَ لَهُ فُرْصَةُ السُّحَاةِ وَالْهَرَبِ . وَشَعَرْتُ بِالْخَوْفِ مِنَ الزَّرْفِيرِ ، وَبِالْغَيْبَانِ مِنَ التَّفْكِيرِ فِيمَا اعْتَزَمَ أَنْ يَفْعَلَهُ .

اخْتَفَتِ السُّجُومُ وَنَذَتْ بِشَائِرِ الصُّبْحِ تَلُوحُ ، وَلَمْ تَكُنِ الشَّمْسُ قَدْ أَشْرَقَتْ بَعْدُ . وَلَبِسَ الْكَوْنُ كُلَّهُ حُلَّةَ زَمَادِيَّةٍ : السَّمَاءُ وَالصُّخُورُ وَالْأَشْجَارُ . وَكَانَ أَكْثَرُ شَيْءٍ غَلَاةً هَذَا اللَّوْنُ الرَّمَادِيُّ هُوَ وَخَهُ مَاسْكِيو ، كَمَا ظَهَرَتْ خُطُوطُ قَاتِمَةٍ تَحْتَ عَيْنَيْهِ ، وَتَجَمَّدَتْ بَعْضُ قَطْرَاتِ الدَّمِ عَلَى جَانِبِ وَجْهِهِ إِثْرَ إِصَابَتِهِ بِحَجَرٍ .

أَبْقَى مَاسْكِيو عَيْنَيْهِ مُثَبَّتَيْنِ عَلَى الْأَرْضِ ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وَنَظَرَ إِلَيَّ ، وَلَمْ أَرِ فِي عَيْنَيْهِ سِوَى الْعَجْزِ الَّذِي يُشَاهِدُ فِي نَظَرَاتِ حَيَوَانٍ ضَعِيفٍ يُوشِكُ أَنْ يَمُوتَ . وَحَتَّى تِلْكَ اللَّحْظَةِ لَمْ أَكُنْ لَاحِظْتُ أَيَّ شَيْءٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ابْنَتِهِ غَرِيسَ ، أَمَّا الْآنَ فَقَدْ حِيلَ لِي أَنْ غَرِيسَ تَتَطَلَّعُ إِلَيَّ مِنْ وَرَاءِ نَظَرَاتِهِ ، وَلَمْ أَقْوِ عَلَى

تَحْمِلِ الْعَوْقِفِ وَرُؤْيِيهِ يَقْتُلُ أَمَامَ عَيْنِي .

تَطَلَّعَ مَاسْكِيو إِلَى الشَّمْعَةِ وَكَأَنَّمَا يَتَطَلَّعُ إِلَى دَقَائِقِ حَيَاتِهِ وَهِيَ تَتَسَاقَطُ قَطْرَةً قَطْرَةً مَعَ قَطْرَاتِ الشَّمْعَةِ الْمُسَاقِطَةِ ؛ وَبَعْدَ خَمْسِ عَشْرَةَ دَقِيقَةً سَوْفَ يَسْقُطُ الدُّبُّوسُ .

وَأَخِيرًا قَالَ مُسْتَعْظِمًا : « لَا تَقْتُلْنِي يَا سَيِّدَ بُلُوكِ . إِنْ لِي ابْنَةٌ وَحِيدَةٌ لَيْسَ لَهَا عَائِلٌ سِوَايَ ، فَهَلْ تَسْمَحُ لَكَ نَفْسُكَ أَنْ تَحْرِمَ فِتَاةً صَغِيرَةً عَائِلَهَا الْوَحِيدَ فِي هَذَا الْعَالَمِ ؟ وَهَلْ تَرْضَى أَنْ يَحْمِلُوا إِلَيْهَا جُثَّةَ أَبِيهَا مُلَطَّخَةً بِالدَّمِ وَالرَّمَالِ ، بَعْدَ أَنْ يَجِدُوهُ صَرِيعًا عَلَى الشَّاطِئِ ؟ »

رَدَّ الزَّرْفِيرُ قَائِلًا : « لَقَدْ كَانَ لِي ابْنٌ ، ابْنٌ وَحِيدٌ ، أَخْضَرُوهُ لِي صَرِيعًا . أَتَذْكُرِي مَنْ صَرَعَهُ ؟ وَآيَ مُسَدِّسٍ سَلَبَهُ الْحَيَاةَ ؟ لَقَدْ كَانَ هَذَا الْمُسَدِّسُ نَفْسَهُ الَّذِي سَأَقْتُلُكَ بِهِ . أَسْرِعْ ، وَسَلِّ رِيكَ الرَّحْمَةَ وَالْغُفْرَانَ ، فَلَيْسَ هُنَاكَ وَقْتُ لَصَلَاةٍ طَوِيلَةٍ . ثُمَّ التَّقَطَّ الْمُسَدِّسُ وَادَارَ ظَهْرَهُ لِمَاسْكِيو وَأَخَذَ يَمْشِي بِطُءٍ حَيْثُ وَدَّهَا بَا .

أَلْهَتْ كَلِمَاتُ مَاسْكِيو عَنْ ابْنَتِهِ غَضَبَ الزَّرْفِيرِ ، وَذَكَرَتْهُ بِمَضْرَعِ ابْنَتِهِ دَاقِيدَ . وَلَكِنَّمَا نَقَذَتْ إِلَى قَلْبِي وَذَكَرْتَنِي بِغَرِيسَ ، فَرُحْتُ أَنْوَسِلُ إِلَى الزَّرْفِيرِ أَنْ يَعْدِلَ عَنْ غَرَمِهِ . وَتَرَكَنِي حَتَّى أَتِمَمْتُ كَلَامِي ثُمَّ قَالَ :

« أَنْتِ غُلَامٌ عَطُوفٌ ، وَهَذَا مَا يَجْعَلُنِي أَحِبُّكَ . كَانَ يَجِبُ عَلَيَّ أَنْ أَقْتُلَهُ وَأَنَا فِي سُورَةِ غَضَبِي ، أَمَّا الْآنَ بَعْدَ التَّفْكِيرِ ، لَا أَقْدِرُ عَلَى قَتْلِ رَجُلٍ مُوثِقٍ

الْيَدَيَّ وَالرُّحْلَيْنِ ، حَتَّى وَلَوْ كَانَ قَتْلٌ لِي عَشْرِينَ ابْنًا . وَلَكِنْ لَقَدْ تَرَكْتُ لِي
رَجَالِي ، وَإِذَا تَرَكْتُهُ أَنَا فَسَيَعْمَلُ عَلَى إِعْدَامِهِمْ ، وَلِذَا لَا تُدْ لِي مِنْ قَتْلِهِ .
ظَلَلْتُ مُعْسِكَ بِذِرَاعِ الرُّفَيْرِ بَكَتْ يَدَيَّ أَرْجُوهُ أَنْ يَقْفُو عَنْ مَاسْكِيو ، وَلَكِنَّهُ
دَفَعَنِي عَنْهُ ، وَرَأَيْتُ تَضَمِيمَهُ عَلَى قَتْلِهِ

عِنْدَمَا عُدْنَا إِلَى حَيْثُ كَانَ مَاسْكِيو حَالِسًا ، رَأَيْتُ أَشْعَةَ الشَّمْسِ تُشْرِقُ
مِنْ بَعِيدٍ عَلَى سَطْحِ الْمِيَاهِ ، كَمَا رَأَيْتُ الدُّبُوسَ يَمِيلُ بَطْءً . وَادْرَكْتُ كَمَا
أَدْرَكَ مَاسْكِيو أَنَّ الْوَقْتَ أَرَفَ .

عَادَ مَاسْكِيو يَسْتَعْطِفُ الرُّفَيْرَ ، وَيَعْدُهُ بِتَقْدِيمِ مَبْلَغٍ مِنَ الْمَالِ لِحِذِّ يَرِيدَهُ
مِنْ أَلْفِ جُنَيْهِ إِلَى خَمْسَةِ آلَافٍ ثُمَّ إِلَى عَشْرَةِ آلَافٍ جُنَيْهِ مُقَابِلَ إِخْلَاءِ سَيْلِهِ .
كَمَا أَقْسَمَ بَأَنَّهُ يَهْجُرُ الْقَرْيَةَ بِأَكْمَلِهَا وَيُعِيدُ الزُّلَّ إِلَى الرُّفَيْرِ . وَكَانَتْ الدُّمُوعُ
تَنْهَمِرُ مِنْ عَيْنَيْهِ ، وَالرُّفَيْرُ جَامِدٌ كَالصَّخْرِ لَا يَتَحَرَّكُ . وَاعْدُ الْمُسَدَّسُ لِإِطْلَاقِ
السَّارِ ، وَسَدَدَتْ أُذُنِي بِأَصَابِعِي وَاغْمَضْتُ عَيْنِي حَتَّى لَا أَسْمَعَ وَلَا أَرَى ؛
وَسَقَطَ الدُّبُوسُ !

رَفَعَ الرُّفَيْرُ الْمُسَدَّسَ ، فَهَحَمْتُ عَلَيْهِ لِأَمْنَعَهُ مِنْ إِطْلَاقِهِ . وَمَضَى بَعْضُ
الْوَقْتِ وَنَحْرُ نَتَصَارَعُ ، ثُمَّ انْطَلَقَتْ رِصَاصَةٌ مِنَ الْمُسَدَّسِ . كَيْفَ ؟ لَا
أَدْرِي ! وَتَرَكْتُ الرُّفَيْرَ وَنَظَرْتُ إِلَى مَاسْكِيو فَرَأَيْتُ وَجْهَهُ يَتَهَلَّلُ بَشْرًا ، وَرَأَيْتُهُ
يَنْتَظِعُ إِلَى أَعْلَى الطَّرِيقِ . وَظَنَنْتُهُ يَحْمَدُ السَّمَاءَ عَلَى نَحَاتِهِ ، وَلَكِنْ أَحْدَاثًا
جَدِيدَةً تَوَالَتْ : فَقَدْ سَمِعْتُ أَصْوَاتًا آتِيَةً مِنْ بَعِيدٍ ، وَتَلَفْتُ الرُّفَيْرَ حَوْلَهُ لِيَرَى
مِنْ أَيْنَ تَأْتِي ، أَمَّا مَاسْكِيو فَاسْتَمَرَ نَاطِرًا إِلَى أَعْلَى الطَّرِيقِ .

اقتربت الأصوات شيئاً فشيئاً ، وفي لحظةٍ كان هناك عشرون رجلاً يقفون
عند قمة الطريق ، وقد بدا لنا جلياً في ضوء أشعة الشمس أنهم جنود .
وأدركت - كما أدرك الزفير - أن ماشكيو كان قد استدعاهم واعد منهم كميناً
لإمساكنا ونحس ترتقي الطريق ، إلا أن وصول السفينة مبكراً عن ميعاده كان
سبباً في تأخيرهم .

صرخ صوت : « باسم القانون قف ! »

صاح الزفير : « رباه ! لقد ضعنا ! إنهم حنود الملك ، وماذما سنموت
فليمت هذا الرجل أيضاً » وجرى نحو ماشكيو ليضربه بالسندس ، فصرخ
ماشكيو أمراً للجنود : « هيا ! هيا ! اسرعوا وأطلقوا رصاصكم قتل أن يطلق
علي رصاصة . » هنا انطلقت رصاصة من أعلى وأصابت ماشكيو في جبهته
فخر صريعاً على الحشائش ، قبل أن يصل إليه الزفير .

قال الزفير : « هيا ، هيا إلى الجانب الذي على يسارنا ، والتصق
بالصخر فلن يصيبوك ما دمنا نحتمي به . » وأخذ يعدو . أما أنا فسقطت على
رؤسني ولم أقو على التحرك ، وشعرت بالام مبرحة في ساقَي اليسرى .

عاد إلي الزفير قائلاً : « يا إلهي ! لقد أصابوك . » ثم حملني بين ذراعيه
كما لو كنت طفلاً ، غير مهال بالطلقات المتوالية التي كانت تهال علينا ،
وأسرع بي إلى ما وراء الصخور .

الفصل الثاني عشر

الصعود إلى القمة

نجونا ، ولكن إلى حين - إلى أن يصدر الأمر للجنود بالنزول إلينا
والفحص علينا . ولم يكن معاً سوى مسدس فارغ ، وعند أقدامنا كانت
نرقدة جثة هامدة .

بدأ الزفير الكلام فسألني : « أتستطيع الوقوف يا جون ؟ هل يساقك
حسراً ؟ »

قلت : « لا أدري ، ولكني لا أستطيع الوقوف ، وأشعر بالهم شديد ،
وأعتقد أن الدماء قد ملأت جذائي . »

وحض الزفير ساقي ، وبالرغم من لطفه في الفحص ، فإني شعرت
بالام مبرحة . قال : « نعم لقد كسرت العظمة ، ولكن ليس لدينا وقت
لملاحها الآن ، دعني أصمد لها برباط . ثم نفكر فيما نعمله بعد ذلك . أمامنا
الآن خمس عشرة دقيقة قتل أن ينزل الحنود ، وإذا بقينا هنا فسيأخذونك حياً
ثم يشقونك في دوربستر . وأنت لاتستطيع أن تقايل وأنت مكسور الساق . »

استلني شعور بالغثبان من شدة الألم . وتمنيت لو أنني ما زلت في نزل
السط ، أو في بيت خالتي . وشجعني الزفير قائلاً : « لاتيأس يا بني ، فهناك
سبل لم نطرقه بعد ، ولو كنت سليم الساقين لأسرعنا إليه . ومنع ذلك تحلذ

وَدَعَا نَحَاوِلُ آلَانَ أَمَامَا ذَرْتُ صَيِّقُ لَا يَعْرِفُهُ الْخُودُ يُؤَدِّي إِلَى قِمَّةِ هُورْ هَذَا ،
وَلَمْ أَسْمَعْ بِأَخِي سَلَكُهُ مِنْ قَبْلِ لَشِدَّةِ ضَيْقِهِ وَوُعُورَتِهِ دَعَانِي أَحْمَلُكَ ، وَفِي
الْأَمَاكِسِ الَّتِي لَا تَسْمَحُ بِذَلِكَ حَاوِلُ أَنْ تَرَحِّفَ عَلَي رُكْنَيْكَ وَبَيْدِكَ . »

كَانَتْ مُخَاطَرَةٌ زَهِيَّةٌ ، إِلَّا أَنَّهُمَا كَانَتِ الْفُرْصَةُ الْوَحِيدَةُ الْبَاقِيَةُ أَمَامَا ، وَكَانَ
عَلَيْنَا أَنْ نَغْتَنِمَهَا .

قُلْتُ : « أَوَاهُ يَا عَرِيزِي الْزَفِيرُ ، هَلُمُّ بَا إِلَيْهِ سُرْعَةً ، فَحَيَّرَ لَنَا أَنْ نَسْقُطَ
عَلَى الصَّخْرَةِ وَنَمُوتَ مِنْ أَنْ يَقْضِيَ عَلَيْنَا الْخُودُ وَنُعْذَمَ »

حَاوَلْتُ أَنْ أَقِفَ ، وَلَمْ أَفْلُحْ ، وَسَقَطْتُ عَلَى الْأَرْضِ صَارِخًا مِنْ شِدَّةِ
الْأَلَمِ ، فَحَمَلَنِي الْزَفِيرُ بَيْنَ ذِرَاعَيْهِ وَرَأْسِي فَوْقَ كَتِفِهِ أَنْتَظِلُّ إِلَى الْخَلْفِ ،
وَأَتَّخِذُ نَحْوَ الدَّرَبِ الصَّيِّقُ وَالْقَيْتُ بَطْرَةً أَحْيِرَةً عَلَى مَا سَكَبُوهُ ، وَهُوَ مُلْقَى عَلَى
الْأَرْضِ وَوَجْهُهُ نَحْوَ السَّمَاءِ .

وَضَعَنِي الْزَفِيرُ بَرْهَةً عَلَى الْأَرْضِ لِيَسْتَرِيحَ قَبْلَ أَنْ يَبْدَأَ فِي الصُّعُودِ ،
وَنَظَرْتُ إِلَى الدَّرَبِ فَهَالَنِي مَا رَأَيْتُ . رَأَيْتُ دَرَبًا يَتَسَّعُ بَعْضَ الْإِنْسَاعِ فِي
بِدَايَتِهِ ، ثُمَّ يَأْخُذُ فِي الضَّيِّقِ شَيْئًا فَشَيْئًا ، حَتَّى لَيَبْدُوَ مِثْلَ خَطٍّ مَرْسُومٍ عَلَى
وَجْهِ الصَّخْرِ . وَكَانَتْ هُنَاكَ رَائِحَةٌ كَرِيهَةٌ تَبْعَثُ مِنْ بَقَايَا جُثَّةِ بَقْرَةٍ سَقَطَتْ مِنْ
أَعْلَاهُ

الْحَحْتُ عَلَى الْزَفِيرِ كَيْ يَتْرُكَنِي وَنَحْوَ نَفْسِهِ ، فَقَالَ : « هَيَّا ! هَيَّا ! لَمْ
يَعُدْ هُنَاكَ مَحَالٌ لِتَعْيِيرِ خُطَّتِنَا ، وَلَمْ يَتَّحِ أَمَامَنَا سِوَى خَمْسِ عَشْرَةِ دَقِيقَةٍ وَلِحَوْ

بِنا الْجُنُودُ . وَإِذَا ارْتَقَيْنَا الْقِمَّةَ فَسَوْفَ نُوفِّرُ سَاعَةً بِأَكْمَلِهَا ، لِأَنَّ الْجُنُودَ سَيُضَيِّعُونَ بَعْضُ الْوَقْتِ ، بَعْدَ الْعُثُورِ عَلَى حُتَّةٍ مَاسِكِيو . هَيَّا أَغْمِضْ عَيْنَيْكَ وَلَا تَفْتَحْهُمَا حَتَّى أُخْبِرَكَ .

بَعْدَ لَحْظَةٍ تَرَكْنَا الشَّاطِئَ وَبَدَأَ الزَّرْفِيرُ يَتَسَلَّقُ الصُّخْرَ ، وَكَانَ يَتَحَسُّ الدَّرْبَ خُطْوَةً خُطْوَةً بِقَدَمَيْهِ . وَلَبِثْتُ مَحْمُولًا مُغْمَضُ الْعَيْنَيْنِ ، حَتَّى وَصَلْنَا إِلَى ارْتِفَاعٍ عَالٍ فَشَعَرْتُ بِتَغْيِيرٍ فِي سُرْعَةِ الرِّيحِ ، وَأَخَذْتُ خُطَوَاتِ الزَّرْفِيرِ تَتَبَاطَأُ أَكْثَرَ فَأَكْثَرَ . وَأَخِيرًا قَالَ : « جُون ! سَأَتَوَقَّفُ هُنَا قَلِيلًا ، وَلَكِنْ لَا تَفْتَحْ عَيْنَيْكَ حَتَّى أَمُرَكَ بِذَلِكَ . » وَوَضَعَنِي عَلَى الْأَرْضِ ثُمَّ اسْتَأْنَفَ حَدِيثَهُ قَائِلًا : « الدَّرْبُ هُنَا ضَيِّقٌ جَدًّا وَلَا يَسْمَحُ لِي بِحَمْلِكَ ، وَعَلَيْكَ أَنْ تَرْخِفَ وَحَدِّكَ . ثَبْتُ نَظْرَكَ عَلَى الصُّخْرِ وَإِيَّاكَ أَنْ تَنْظُرَ إِلَى أَسْفَلِ . »

فَتَحْتُ عَيْنِي فَوَجَدْتُ دَرَبًا لَا يَتَجَاوَزُ اتِّسَاعُهُ قَدَمًا وَاحِدَةً . وَبَدَأْتُ أَرْخِفُ عَلَى رُكْبَتَيَّ وَيَدَيَّ ، وَكَانَتْ الْأَلَامُ الْمُبْرِحَةُ فِي سَاقِي تَتَضَاعَفُ كُلَّمَا خَرَزْتُهَا خَلْفِي .

صَرَخَ الزَّرْفِيرُ : « أَسْرِعْ ! أَسْرِعْ ! » وَكَانَ إِذَا سَبَقَنِي تَوَقَّفَ لِادْرِكِهِ . وَعِنْدَمَا اتَّسَعَ الطَّرِيقُ نَعَضَ الشَّيْءَ انْحَنَى وَتَسَلَّقْتُ طَهْرَةً ثُمَّ نَهَضَ وَاقْبًا وَمَضَى فِي سَبِيلِهِ .

نَظَرْتُ إِلَى أَسْفَلِ وَرَأَيْتُ الْبَحْرَ عَلَى بُعْدٍ مَحْيٍ . وَكَانَتْ الطُّيُورُ تُطِيرُ تَحْتَنَا ، وَتَذْكُرْتُ الْبَقْرَةَ الَّتِي مَاتَتْ نَتِيجَةَ سُقُوطِهَا فَصَرَخْتُ مِنَ الْخَوْفِ وَتَوَقَّفْتُ الزَّرْفِيرَ وَدَفَعَنِي لِأَسْفَلِ فَانْطَحْتُ وَانْبَطَحَ مَعِي قَائِلًا : « أَغْمِضْ عَيْنَيْكَ

وَعُدُّ : وَاحِدًا ، اِثْنَيْنِ ، ثَلَاثَةً حَتَّى أَعْرِفَ . . . »

وَبَدَأَ لِي صَوْتُهُ بَعِيدًا جَدًّا ، ثُمَّ عَادَ يَقُولُ : « لَقَدْ اسْتَغْرَقْنَا عَشْرَ دَقَائِقَ كَيْ نَصِلَ إِلَى هُنَا ، وَلَا يَزَالُ أَمَامَنَا خَمْسُ دَقَائِقَ أُخْرَى قَبْلَ أَنْ يَصِلَ الْجُنُودُ إِلَى الشَّاطِئِ ، وَلَعَلَّهُمْ تَرَكَوْا وَاحِدًا مِنْهُمْ فَوْقَ الْقِمَّةِ ، وَلَكِنِّي لَا أَرْجَحُ ذَلِكَ لِأَنَّهُمْ لَا يَعْرِفُونَ هَذَا الدَّرْبَ . أَمَامَنَا الْآنَ خَمْسُونَ مِثْرًا فَقَطْ . جُون ! لَا تَحْذُلْنِي بِخَوْفِكَ هَذَا . إِذَا سَقَطْتَ جَذَبْتَنِي مَعَكَ . ثَبْتُ نَظْرَكَ عَلَى الْأَرْضِ وَهَيَّا بِنَا ، وَلَا فَسَنَهْلِكَ إِذَا بَقِينَا هُنَا دَقِيقَةً وَاحِدَةً . »

قُلْتُ : « لَا أَقْدِرُ ! لَا أَقْدِرُ ! »

قَالَ : « لَقَدْ وَصَلُوا الْآنَ إِلَى الشَّاطِئِ وَوَجَدُوا جُتَّةً مَاسِكِيو ، وَمَاهِي إِلَّا دَقِيقَةً أُخْرَى حَتَّى يَرُونَا . »

مَا أَغْرَبَ تَكْوِينَ فِكْرِ الْإِنْسَانِ وَشُعُورِهِ ؛ فَالْخَوْفُ الْأَكْبَرُ يُطْفِئُ عَلَى الْخَوْفِ الْأَصْغَرَ . فَبَعْدَ سَمَاعِي كَلِمَاتِهِ زَايَلَنِي الْخَوْفُ مِنَ السُّقُوطِ مِنْ عَلٍ وَمَحْتُ عَيْنِي وَبَدَأْتُ أَتَقَدَّمُ زَاحِفًا عَلَى يَدَيَّ وَرُكْبَتَيَّ . وَشَجَّعَنِي الزَّرْفِيرُ قَائِلًا : « حَسَنًا ، حَسَنًا . الْبَاقِي خَمْسُونَ مِثْرًا أُخْرَى ، وَمَتَى اجْتَرَزْتَ بِلَكَ النَّاصِيَةِ حَمَلْتِكَ مَرَّةً أُخْرَى . وَسَتَجِئُ بِإِذْنِ اللَّهِ . »

وَبَعْدَ خَمْسِ دَقَائِقَ بَلَّغْنَا الْقِمَّةَ .

الفصل الثالث عشر

الكهف

كَانَ الْوَقْتُ مُبَكَّرًا وَقَدْ سَطَعَتِ الشَّمْسُ فَوْقَ سَطْحِ الْخَرِ وَرَفَدْنَا عَلَى الْحَشَائِشِ لِنَلْتَقِطَ أَنْفَاسَ وَنَشْتَرِيحَ بَعْدَ مُغَامَرَةِ الْمُرْعَةِ .

بَهْضَ الرِّقْرِ كَمَنْ هَبَّ مِنْ نَوْمٍ ، وَقَالَ : « يَجِبُ أَنْ نُوَاصِلَ السَّيْرَ . لَا يَزَالُ أَمَامَ الْجُنُودِ وَقْتُ قَبْلِ أَنْ يَصْلُوا ، لَكِنْ بِحَبِّ أَلَّا يَجِدُوا لَنَا أَثَرًا هُنَا . كَمَا أَنَّ سَاقَكَ فِي حَاجَةٍ إِلَى عِلَاحٍ ، وَاعْرِفْ كَهْفًا اسْمُهُ كَهْفُ حُورَيْفٍ يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ مَحْبَأً نَقِيبَ هَيْبَاتِ إِلَهِهِ ، فَقَدْ يَسْتَعْرِقُ الْوُصُولُ إِلَيْهِ طَوَالَ الْيَوْمِ لِأَنَّهُ يَتَعَدَّى مِائَةً عَشْرَ كِيلُومِتْرًا . وَأَمَّا رِجْلُكَ فَكُنْ سَهْلًا ، وَأَنْتَ صَبْرٌ غَيْرُ خَفِيفٍ لَزْزَنٍ » وَانْتَسَمَ وَمَدَّ لِي يَدَيْهِ ثُمَّ حَمَلَنِي وَبَدَأَ الْمَسِيرَ

مَضَى نَعْضُ الْوَقْتُ ، وَاشْتَدَّتْ حَرَارَةُ الشَّمْسِ وَرَادَتْ الْأَمِي ، وَنَعَبَ الرِّقْرِ وَاحِدٌ يُطْفِئُ فِي السَّيْرِ شَيْئًا فَشَيْئًا حَتَّى بَلَغَا حَدَارًا قَوِيًّا مُتَهَدِّمًا ، فَوَضَعْنِي عَلَى الْأَرْضِ وَأَلْقَى سَفْسَهُ حَاسِيًا وَبَعْدَ دَقَائِقَ مَعْدُودَةٍ كَانَ يُعْطُ فِي النَّوْمِ

حَسَنَتْ مُسْنَدُ طَهْرِي إِلَى الْحَدَارِ أَتَأَمَّلُ فِيمَا حَدَثَ وَبَدَأَ النَّوْمُ يُدَاعِبُ غَيْبِي أَيْضًا وَحَدَّثْتُ كُلَّ حَيْدِي أَنَّ أَتَقَى سَاهِرًا لِلْجِرَاسَةِ كَمَا كُنْتُ الرِّقْرِ ، وَلَكِنْ مُحَاوَلَاتِي بَدَتْ بِالْفُشْلِ وَبِمَتِّ لَأَسْتَنْقِطَ عَلَى صَوْتِ طَلَّةٍ بَارِيَةٍ قَرِيبَةٍ وَهَمَمْتُ بِإِقْطَاطِ الرِّقْرِ ، فَوَحَدْتُهُ يَقْطَا ، وَ أَوْمَأَ إِلَيَّ أَنَّ أَلَمْ

الصُّمْتُ ، وَمَضَى يَسْتَظِلُّ الْأَمْرَ . وَعَادَ بَعْدَ قَلِيلٍ لِيَقُولَ : « إِنَّهُ غُلَامٌ يَضْطَاذُ الطُّيُورَ . وَلَنْ نَبْرَحَ مَكَانَنَا إِلَّا إِذَا اتَّجَهَ نَاحِيَتَنَا . »

تَعْدُ بَرْهَةً قَالَ الزَّرْفِيرُ : « إِنَّ الْغُلَامَ مُقْبِلٌ نَحُونَا عَلَيْنَا أَنْ يُظْهِرَ أَنْفُسَنَا . » وَنَهَضَ فَرَأَهُ الْغُلَامُ ، وَبَدَأَ كَأَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَخْرِي هَرَبًا . وَسَأَلَ الزَّرْفِيرُ الْغُلَامَ : « مَاذَا تَصْنَعُ هُنَا ؟ »

أَجَابَ الْغُلَامُ : « أَضْطَاذُ الطُّيُورَ لِلْمُزَارِعِ ثَوْبَ . »

فَسَأَلَهُ الزَّرْفِيرُ : « أَتَسْمَحُ لِي بِبَعْضِ الْبَارُودِ أَضْطَاذَ بِهِ ارْتِبَا لِعِشَانِنَا ؟ »

قَالَ الْغُلَامُ : « آسَفُ يَا سَيِّدِي فَلَيْسَ مَعِيَ إِلَّا الْقَلِيلُ ، وَأُرِيدُ صَيْدَ بَعْضِ الطُّيُورِ وَالْأَنْثَى الْعِقَابُ مِنَ الْمُزَارِعِ . »

رَدَّ الزَّرْفِيرُ : « أَعْطِنِي بَعْضَ مَا مَعَكَ وَخُذِ الثَّمَنَ . » وَأَبْرَزَ الزَّرْفِيرُ قِطْعَةً كَبِيرَةً مِنَ النُّقُودِ .

لَمَعَتْ عَيْنَا الْغُلَامِ عِنْدَ رُؤْيَا قِطْعَةِ النُّقُودِ ، وَقَالَ لَهُ الزَّرْفِيرُ : « سَأَعْطِيكَ قِطْعَتَيْنِ إِذَا أَعْطَيْتَنِي كُلَّ مَا مَعَكَ مِنَ الْبَارُودِ . »

وَسَرَّعَانَ مَا وَافَقَ الْغُلَامُ وَسَأَلَهُ الزَّرْفِيرُ : « هَلْ تَسْعِي الْبُنْدُوقِيَّةُ أَيْضًا ؟ »

أَجَابَ الْغُلَامُ : « لَا ، هَذَا غَيْرُ مُمَكِّنٍ . فَهُنَاكَ شَائِعَةٌ أَنَّ بَعْضَ الْمُهْرَبِينَ يَخْتَبِئُونَ فِي هَذِهِ الْجِهَاتِ ، وَأَنَّ الْحُنُودَ يَجِدُونُ فِي أَثَرِهِمْ . »

أَحَابَةُ الزَّرْفِيرِ : « هَذَا مَا سَمِعْتُهُ ، وَهَذَا هُوَ سِرُّ رَغْبَتِي فِي شِرَاءِ الْبُنْدُوقِيَّةِ ، حِمَايَةَ لِنَفْسِي . أَمَّا أَنْتَ ، فَإِنَّكَ غُلَامٌ صَغِيرٌ لَنْ يُفَكِّرَ الْمُهْرَبُونَ فِي إِيْذَانِكَ ، وَلَسْتَ فِي حَاجَةٍ لِبُنْدُوقِيَّةٍ . »

وَأَخْرَجَ الزَّرْفِيرُ قِطْعَةً نَقُودٍ ذَهَبِيَّةٍ ، أَسْرَعَ الصَّبِيُّ يَتَسَاوَلُهَا وَيَكْرُرُ رَاجِعًا ، بَعْدَ أَنْ أَعْطَى الزَّرْفِيرَ الْبُنْدُوقِيَّةَ .

تَوَحُّشَتْ شَرًّا مِنْ ذَلِكَ الصَّبِيِّ ، وَتَشَعَّتْ بِنَظَرِي حَتَّى تَوَارَى عَنْ عَيْنِي . وَكَانَ قَدْ بَدَأَ السَّيْرَ بِحُطًى عَادِيَّةٍ ثُمَّ أَخَذَ يَعْذُو بِسُرْعَةٍ ، فَأَيَقَنْتُ أَنَّهُ ذَهَبَ لِيُخْبِرَ الْجُنُودَ عَنَّا .

قَالَ الزَّرْفِيرُ : « هَيَّا ، لَقَدْ زَالَتْ شِدَّةُ الْحَرِّ وَلَمْ يَبْقَ أَمَامَنَا سِوَى الْقَلِيلِ . » حَمَلَنِي وَأَخَذَ يَسِيرُ مُسْرِعًا بِمُحَاذَاةِ الْجِدَارِ ، وَتَعَدُّ أَنْ قَطَعْنَا مَسَافَةً مِنَ الطَّرِيقِ بَيْنَ الْحُقُولِ وَالْمَرَارِعِ وَجَدْنَا نَفْسَيْنَا فَوْقَ مُرُوجٍ خَضِرَاءَ . ثُمَّ وَصَلْنَا إِلَى تَلٍّ عَلَيْهِ بَعْضُ الثِّيُوبِ الْقَدِيمَةِ الْمُهْجُورَةِ الْمَبْنِيَّةِ بِالصُّخُورِ ، وَقَدْ تَأَثَّرَتْ ضَحُورُهَا وَتَهَدَّمَتْ مُنْذُ سِنِينَ عَدِيدَةٍ . وَرَأَيْنَا بِالتَّلِّ فَخْوَةً تَحْتَوِي عَلَى بَعْضِ الدَّرَجَاتِ الْهَابِطَةِ إِلَى أَسْفَلِ .

وَضَعَنِي الزَّرْفِيرُ عَلَى الْأَرْضِ قَائِلًا : « الْحَمْدُ لِلَّهِ ، هَذَا هُوَ مَدْخَلُ كَهْفِ خُوزَيْفٍ سَنَحْتَبِي هُنَا حَتَّى تَبْرَأَ سَاقُكَ ، وَلَنْ يَجِدُونَا أَبَدًا . إِنَّ هَذِهِ الدَّرَجَاتِ تَقُودُ إِلَى سِرْدَابٍ مُنْحَوٍّ فِي قَلْبِ الصُّخْرِ ، وَفِي نِهَائِهِ كَهْفٌ ذُو

فُتْحَةٌ تَطُلُّ عَلَى الْبَحْرِ ، وَسَيَكُونُ ذَلِكَ الْكَهْفُ مَخْبَأَنَا .

اسْتَرَحْنَا قَلِيلًا ثُمَّ حَمَلَنِي بَيْنَ ذِرَاعَيْهِ ، وَأَخَذَ يَهْطُ الدَّرَجَ حَتَّى وَضَعَنَا إِلَى أَسْفَلِهِ ، وَكَانَ الطَّلَامُ نَعْمُ الْمَكَانِ . وَاتَّحَهُ الرِّقِيرُ إِلَى الْيَمِينِ نَحْوَ فُتْحَةٍ فِي الطَّرِيقِ كَمَنْ يَعْرِفُ السَّبِيلَ وَيَأْلَفُهُ ، وَكَانَ يَتْرُكُنِي مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ رَيْثَمَا يَسْتَطْلِعُ الطَّرِيقَ . وَأَخِيرًا وَضَعَنَا إِلَى الْكَهْفِ حَيْثُ كَانَ هُنَاكَ ضَوْءٌ خَافَتْ يَسْعَتُهُ مِنْ فُتْحَةٍ فِي نَهَائِيهِ . وَشَعَرْتُ بِهَوَاءٍ بَارِدٍ نَقِيٍّ يُبَشِّرُ بِقُرْبِ الْبَحْرِ .

الفصل الرابع عشر

التمائل للشفاء

وَضَعَنِي الرِّقِيرُ فَوْقَ رِمَالٍ جَائِفَةٍ نَاعِمَةٍ . قَالَ : « يَجِبُ أَنْ تَرْقُدَ هُنَا لِمُدَّةِ شَهْرٍ أَوْ شَهْرَيْنِ ، وَإِنْ كُنْتُ أَعْلَمُ إِنَّهُ لَيْسَ فِرَاشًا وَثِيرًا ، إِلَّا أَنِّي مُتَاَكِّدٌ أَنَّ هُنَاكَ مَا هُوَ أَسْوَأُ مِنْ هَذَا بِكَثِيرٍ . »

كَانَ الصَّدَاعُ يَكَادُ يَقْتُلُنِي ، وَكُنْتُ أَشْعُرُ بِطَمَأٍ شَدِيدٍ ، فَأَخْصَرَ الرِّقِيرُ بَعْضَ الْمَاءِ فِي قُبْعَتِهِ فَشَرِبْتُ ، وَتَعَذَّاهَا لَمْ أَعِ مَا حَدَثَ حَوْلِي فَقَدْ اشْتَدَّتْ بِي وَطْأَةُ الْمَرَضِ وَكُنْتُ أَهْلِي وَأَثَوْرَ حَتَّى اضْطُرَّ الرِّقِيرُ أَنْ يُمْسِكَ بِي وَيَمْنَعَنِي مِنَ السُّهُوسِ . وَقَضَيْتُ عَشْرَةَ أَيَّامٍ كَانَ الرِّقِيرُ يَقُومُ حَلَالَهَا تَمْرِيضِي كَمَا تَفْعَلُ الْأُمُّ الْخَوْنُ عِنْدَ مَرَضِ وَلَدِهَا وَلَمْ يَتْرُكْ الْكَهْفَ قَطُّ طَوَالَ تِلْكَ الْمُدَّةِ إِلَّا لِيَتَحَبَّ عَنِ الطَّعَامِ .

جَعَلَنِي الْمَرَضُ شَخْصًا هَرِيلاً صَعِيفًا ، وَكُنْتُ أَمْضِي الْوَقْتَ مُسْتَلْقِيًا عَلَى الْأَرْضِ ، خَالِي الدَّهْرَ ، بَعِيدًا عَنِ الْهَمُومِ ، أَكُلُ مَا يُقَدَّمُ لِي وَلَا أَفَكِّرُ فِي شَيْءٍ .

لَمْ يَعْلَمْ مَكَابِيَا أَخَذَ سَبْوَى رَأْسِي ، فَقَدْ كَانَ يَأْتِيهَا بِالْأَنْبَاءِ وَالطَّعَامِ وَكَانَ الْخُنُودُ مُسْتَمْرِينَ فِي النَّحْبِ عَنَّا فِي كُلِّ مَكَانٍ وَفِي الْبَدَايَةِ عِنْدَمَا وَحَدُوا جُثَّةَ مَا سَكَبُوا ، طَنُّوا أَنَّنَا سَقَطْنَا فِي الْبَحْرِ ، وَلَكِنْ عِنْدَمَا رَوَى الصَّيِّ

حكاية الرجل والصبي اللذين قابلهما وباع أحدهما البندقيّة والبارود ، وأن
رجل الصبي كانت مكسورة ، اتفقوا أنه لا بد أن تكون نحن الشخصين اللذين
يتحشون عنهما . والضيق الجنود تهمة قتل ماسكيو بالزفير ، وخصّصت مكافأة
قدرها خمسون جنيهًا لمن يجده أو يدلّ عليه ، وعشرون جنيهًا لمن يدلّ
عليه .

تعاقت الأيام ، واسترددت عافيتي شيئًا فشيئًا . وبدأ الزفير يفكر في
الرحيل . فزأى أن ذهبت إلى نيويورك ومنها نجر إلى فرنسا . وقررنا أن
نركب السفينة بونافنشر - سمية المهرجين - ونبقى حتى بهذا الحال أو يتوقف
البحث عنا .

وفي ليلة ربيع عاصفة ذهب الزفير إلى بلدة بول حيث كانت ترسو
السفينة ليقابل البحارة ويتفق معهم .

وبما كنت جالسًا أمام الكهف في انتظاره أنطلع إلى البحر وأرقب
الأمواج وهي ترتطم بالصخر ، انتابني الهواجس وتخيلت أنني أرى رجلًا يرقد
على الشاطئ ، وأن وجه ذلك الرجل هو وجه ماسكيو يضحك ساخرًا بي .
وأسرعت إلى داخل الكهف وأضأت الشمعة ثم أخرجت ورقة ذي اللحية
السوداء أقرأ فيها بتوقيع جون موهون :

قد يخيا الإنسان ثمانين عامًا
وتقطع قدماء درب الثموم

فم وأنهل من بشر المتعة والهاء
فالصوت يأتي من الشمال أو
الجنوب ، في الطهيرة أو المساء

سمعت صوت خطوات في الممر مقبلة نحوي ، ولم تكن خطوات الرقيب
لأن وقت عودتي من بول لم يكن قد حان بعد ، علاوة على أننا كنا متفقيين
على أنشودة يرددونها عندما يأتي حتى أعرف أنه القادم .

تركت الشمعة وتناولت البندقيّة ، وكانت بجانبني . وهدأت العاصفة ،
وأخذ صوت الأقدام يقترب شيئًا فشيئًا ، ثم عثرت قدم الرجل بحجر فمتم
بكلمات غاصّة ، وصحّت : « من القادم ؟ اجب وإلا أطلقت عليك
النار . »

أجاب : « أنا راتسي ياجون ، فهل تطلق النار على أعر صديق لك
بالبندقيّة التي أعطاك إياها ؟ »

تركت البندقيّة ، وأضأت الشمعة وتبيّنت راتسي واقفا أمامي وقد بللته
الأمطار . وفرح وتهلل وجهه عندما رأي ، وأمسك يدي قائلاً : « جون ! لقد
عبّرت في شهرين . كنت غلامًا وأصحت رجلًا . حيسا صحبك معنا منذ
شهرين إلى هورهد كنت صبيًا وما كان ينبغي أن تكون معنا وقتها ، فلم يكن
ذلك عملاً لائقًا بالأولاد . »

أجبت : « كلا ياراتسي . إن مكاني دائمًا بجانب الزفير ، فحيثما يذهب

أَذْهَبَ . « وَجَلَسْتُ لِأَنْ سَاقِيَ الْمَشْيِ

عَادَتِ الرِّيحُ إِلَى الْهَوْبِ فَانْطَفَأَتِ الشَّمْعَةُ . قَالَ رَأْسِي : « يَا لَهَا مِنْ
لَيْلَةٍ لَيْلَاءٍ ! »

قُلْتُ : « نَعَمْ ! لِيَكُنِ اللَّهُ فِي عَوْنِ الْبَحَّارَةِ الْمَسَاكِينِ . »

قَالَ رَأْسِي : « غَدًا وَلَا شَكَّ ، سَتَكُونُ هُنَاكَ بَعْضُ الْمَرَائِكِبِ الْمُحْطَمَةِ ،
مُلْقَاةً عَلَى الشَّاطِئِ فِي مَوْقِعِي . هَيَّا تُشْعِلْ بَارًا » وَجَمَعْنَا بَعْضَ الْأَشْجَابِ
وَأَوْقَدْنَا النَّارَ .

قَالَ رَأْسِي : « مَا أَمْتَعَ الدَّفْعُ ، لَقَدْ كَذْتُ أَمُوتُ بَرْدًا ، وَلَكِنِّي حَرِيصٌ
فَهَذَا الْمَكَانُ يَعُودُ بِذَاكَرَتِي إِلَى أَرْبَعِينَ عَامًا مَضَتْ ، عِنْدَمَا كُنْتُ حَدِيثَ الْعَهْدِ
بِالتَّهْرِيبِ . قَدِ انْتَصَحَ بِي مَا كُنْتُ أَرْقُدُ عَلَى بَعْضِ الْبُقْعَةِ الَّتِي تَحْسُنُ أَنْتِ
عَلَيْهَا الْآنَ ، رَأَيْتُ سَفِينَةً فَوْقَ مِيَاهِ الْبَحْرِ تَتَعَادَفُهَا الرِّيحُ ، وَاحِدٌ مِنْ عَلَيْهَا مِنْ
رِحَالٍ وَنِسَاءٍ يُنَاصِلُونَ الْمَوْتَ وَيُصَارِعُونَ الْأَمْوَاحَ ، وَنَحْنُ لَا حَوْلَ لَنَا وَلَا قُوَّةَ ،
وَلَمْ نَتِمَكَّنْ مِنْ مَدِّ يَدِ الْمُسَاعَدَةِ لَهُمْ فَقَدْ حَمَسَتْ الْأَمْطَارُ وَالطَّلَامُ عَنَّا
رُؤُوسَهُمْ . فِي الصَّاحِ الْتَلَوْنَا أَنَّ السَّفِينَةَ فُلُورِيدَا قَدْ عَرَقَتْ مِنْ عَلَيْهَا
مِنْ رِحَالٍ وَنِسَاءٍ وَأَطْعَمَالٍ . « ثُمَّ نَاولَنِي رَأْسِي وَرَقَةً قَائِلًا : « خُذْهَا وَاقْرَأْ » .

قَرَأْتُ إِعْلَانًا عَنْ مُكَافَأَتَيْنِ ، إِحْدَاهُمَا بِمِئَةِ حُمُسٍ خِيَّتِهَا لِمَنْ يَحْدُو
يُرْشِدُ إِلَى مَكَانِ الزَّقِيرِ ، وَالْأُخْرَى بِمِئَةِ عَشْرِينَ خِيَّتِهَا لِمَنْ يَحْدُو أَوْ يُرْشِدُ
إِلَى مَكَانِي .

قَالَ رَأْسِي . « لَا أَحَدٌ فِي مَوْقِعِي يَعْرِفُ أَيُّكُمْ غَيْرِي ، وَلَوْ عَزَفُوا فَلَنْ
نَسُوا السَّرَّ أَيْدًا ، وَالْجُبُودُ يُرَاقِبُونِي أَيْتَمَا دَهَشْتُ ، لَدَا يَجِبُ إِلَّا أَحْضَرُهَا
بِسْمَةِ »

أَحْزَنَتْهُ عَنْ عَزْمِهَا بِالرَّحِيلِ إِلَى فَرَسَا ، فَانْتَهَجَ وَصَمَتْ لِحْطَةً ، ثُمَّ قَالَ :
إِنْ قَلْبِي حَزِينٌ هَذَا الْمَسَاءَ حَرِيصٌ عَلَى الْأَيَّامِ الطَّيِّبَةِ الَّتِي وَلَّتْ وَلَنْ تَعُودَ .



ولن يعود الزفير إلى موفلييت ؛ والنزل موصد منذ مضرع ماشكو ، وعريس تبدو كالشبح الهائم ، بعد ما أخرها الرجال بأنك و الزفير قتلتا أباها ، ولكنها لم تصدقهم وقالت : « مستحيل ! إن الزفير لا يمكن أن يقتل رجلاً أعزل من السلاح موثق اليدين والقدمين ؛ ولا يمكن أن يسمع خون بذلك . »

كان صوت راتسي أخلى من الموسيقى في أدبي . فقد أثلح صدري وتعت الفرح في نفسي ، وقررت أن أذهب لعريس وأودعها قل سفري ، وأخبرها بكل شيء .

نظر راتسي إلي ملي ثم قال : « نعم ، إنها جميلة وإن كانت شاحبة اللون نحيلة ، ولو كنتم رجلاً وامرأة ، لكانت لك نعم الزوجة إذا رضيت بك زوجاً . » ووضع بعض الأخشاب فوق النار فاشتعلت وعلى صوتها رأيت قطعة من الورق ملقاة على الأرض قريباً من قدم راتسي . إنها ورقة دي اللحية السوداء التي كنت أقرأها عندما سمعت صوت أقدام في السرداب .

التقط راتسي الورقة وقرأها ، ثم قال : « ما أزدأ هذه الكتابة ، وما أجهل من كتبها . لقد ميز أحرف بعض الكلمات دون مبرر . » أعطاني الورقة ، ونهض قائلاً : « لا أستطيع انتظار الزفير حتى يعود . يجب أن تخبره بضرورة رحيلكما بسرعة . » وصافحي وانصرف .

أخذت الورقة ، وعدت أناملها ، وكلماته ترن في أذني . « لقد ميز أحرف بعض الكلمات دون مبرر : »

ثمانين قدماً من بشر الشمال »

وفجأة وضح أمامي اللعز ، وعشت من نفسي كيف لم أهتم للحل من قبل . إن الماسة مخبأة في بشر على عمق ثمانين قدماً ، أو أن البئر تبعد ثمانين قدماً إلى الشمال . ولكن أي شمال هذا ؟ وبينما أنا أفكر غلبنى العاس فمت .

استيقظت فوجدت النار ما زالت مشتعلة و الزفير يجلس بحانها منهمك في طهو الطعام . قال : « أنت لا تصلح للحراسة يا جون . فهذه هي المرة الثانية التي أجذك فيها نائماً عندما يجب عليك أن تبقى مستيقظاً . »

كان فكري ما زال مشغولاً بالورقة وما توصلت إليه من حل ، ولما حدثته عنها قال . « برك الله فيك يا سي ! أظنك حقاً قد اهتديت إلى حل هذا اللعز ولكن أين هذه البئر ؟ إنه ليس في موفلييت شر بهذا العمق ، فربما تكون في غير موفلييت وربما تكون في قلعة كاريسبروك ، حيث كان الملك سجيناً في حراسة ذي اللحية السوداء . وقد سمعت عن وجود بشر هناك ، داخل القلعة . هيا بذهب إليها ، ولي في القرية بعض الأصدقاء يستطيع أن يخبرني في مابلهم . كما أنا سيكون في مأمن أكثر مما نحن عليه الآن . » هكذا تقرر الرحيل إلى كاريسبروك بدلاً من فرنسا . وفي اليوم التالي أحضر الزفير سائلاً بنياً صبغ به وخفي ، ثم حلق لحيته وارتدى الملابس الحديدية التي أحصرها ، وكانت تناسب مزارعاً وغلماً . ونظر كل منا إلى الآخر ، وتأكدنا من أنه لن يعرفنا أحد ، ثم رحت أمشي جيئة وذهاباً لتقوية ساقي .

الفصل الخامس عشر حتى عودتك

لَمْ يَتَقِ سِوَى لَيْلَتَيْ قَتْلِ أَنْ تُعَادِرَ مَخْبَأَنَا وَكُنْتُ أَشْعُرُ بِالْأَسَى ،
وَتَمَلَّكَتْنِي رَغْبَةٌ شَدِيدَةٌ فِي أَنْ أَرَى غُرْبَسَ قَتْلِ رَحِيلِي وَلَكِنِّي خَجَلْتُ مِنْ
إِدَاءِ تِلْكَ الرَّغْبَةِ أَمَامَ الرَّقِيرِ وَبِشْمَا كَمَا حَالَسْتِ عَلَى صَخْرَةٍ عِنْدَ مَدْخَلِ
الْكَهْفِ تُرَاقِبُ أَشْعَةَ الشَّمْسِ الْغَارَةِ ، رَأَيْتِ الْفُرْصَةَ سَاحَةً فَقُلْتُ :
« عَزِيزِي الرَّقِيرُ . لَقَدْ أَنْقَذْتُ حَيَاتِي ، وَقُمْتُ بِرِعَايَتِي طَوَالَ هَذِهِ الْمُدَّةِ
وَلَكِنْ مَازَالَ لِي طَلَبٌ وَاحِدٌ أَرْجُوهُ مِنْكَ أَفَلْ أَنْ تَدْعِي أَخْرَجَ مِنْ الْكَهْفِ
وَأَسِيرُ عَلَى الْحَشَائِشِ لَقَدْ مَضَى عَلَيَّ شَهْرَانِ لَمْ أَرْ فِيهِمَا سِوَى هَذِهِ
الْحُذْرَانِ الْحَجَرِيَّةِ ، وَقَدْ تَأَقَّتْ نَفْسِي لِرُؤْيَةِ الْعَالَمِ الْحَارِحِيِّ . »
قَالَ الرَّقِيرُ : « صَبْرٌ يَا وَلَدِي ! لَا تَقُلْ إِنِّي أَنْقَذْتُ حَيَاتَكَ . فَإِنَّا الَّذِي
عَرَضَتْكَ لِلْمَخَاطِرِ ، وَلَوْلَايَ لَكُنْتَ أَلَانَ تَرَقَّدَ فَوْقَ فِرَاشِكَ فِي مُونْقَلِيَتِ هَادِي
الْبَلِّ ، بَدَلًا مِنْ أَنْ تَتَوَارَى بَيْنَ هَذِهِ الصُّحُورِ . وَسَوْفَ أَذْهَبُ اللَّيْلَةَ إِلَى أَحَدِ
الْبُيُوتِ الْقَدِيمَةِ الْقَرِيبَةِ مِنْ هُنَا ، لِأَخْذِ شَيْئًا تَرَكُهُ لِي رَأْسِي هُنَاكَ . وَتُمْكِنُكَ
أَنْ تَصْحَبَنِي وَتَسْتَمْتَعَ بِنَسِيمِ الْمَسَاءِ . »

قُلْتُ : « لَا يَا الرَّقِيرُ . هَذَا لَا يَكْفِينِي ! دَعْنِي أَذْهَبُ أَبْعَدَ مِنْ هَذَا . أَنْتِ
تَعْلَمُ أَنِّي وُلِدْتُ فِي مُونْقَلِيَتِ وَعِشْتُ فِيهَا طَوَالَ حَيَاتِي ، وَشَبَبْتُ عَلَى
حُجَّهَا فَإِنِ أَحَبُّ كُلِّ شَجَرَةٍ فِيهَا ، وَكُلُّ حَصَاةٍ عَلَى أَرْضِهَا ، وَكُلُّ قَطْرَةٍ مَاءٍ
فِي غَدِيرِهَا . وَأَوَدُّ أَنْ أَلْقِيَ نَظْرَةً وَدَاعٍ أَخِيرَةً عَلَى كُلِّ هَذَا . دَعْنِي أَذْهَبُ إِلَى

مُونْقَلِيَتِ ، وَكُنْ مُظْمَنًا . فَلَنْ يَعْرِفَنِي أَحَدٌ فِي زِيِّي هَذَا ، وَسَأَعُودُ إِلَيْكَ مَسَاءَ
الْعَدِ . »

تَأَمَّلْنِي الرَّقِيرُ لِحَظَةً وَهُوَ صَامِتٌ ، وَكَأَنَّهُ يَقْرَأُ مَا فِي سِرِّيَّتِي . ثُمَّ قَالَ :
« جُونُ ، لَقَدْ سَمِعْتُ كَثِيرًا عَنْ رِجَالٍ حَاطَرُوا بِحَيَاتِهِمْ مِنْ أَجْلِ الْمَالِ أَوْ مِنْ
أَحْلِ الْحُبِّ أَوْ الْبُغْضِ ، وَلَكِنِّي لَمْ أَسْمَعْ قَطُّ عَنْ شَخْصٍ أَلْقَى نَفْسَهُ فِي
الْمَخَاطِرِ لِيَخْطِيَ مَرُؤِيَّةَ شَجَرَةٍ أَوْ حَصَاةٍ أَوْ غَدِيرٍ عِنْدَمَا يُوَلِّغُ الْمَرْءُ حُبَّ
مَكَانٍ أَوْ مَدِينَةٍ مَا ، فَهُوَ يَكُلُّ تَأَكِيدَ يُحِبُّ شَخْصًا فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ أَوْ فِي تِلْكَ
الْمَدِينَةِ قُلْ لِي ، أَتُرِيدُ أَنْ تَوَدَّعَ الْأَسَةَ أَنْ تُولَدَ حَالَتُكَ ؟ »

أَجَبْتُهُ بِالنَّفْيِ ، ثُمَّ أَفْصَيْتُ إِلَيْهِ بِكُلِّ سِرِّي . قَالَ : « يَا لِلْحِمَاةِ ! وَلَكِنْ
يُحِبُّ أَنْ لَا أَنْسِيَ أَنِّي كُنْتُ بَوْمًا مَا فِي مِثْلِ سَكِّ ، وَإِنِّي أَعْرِفُ فَتَاتِكَ ،
وَكَثِيرًا مَا تَعَجَّبْتُ كَيْفَ أَتُحِبُّ رَحُلًا مِثْلَ مَا سَكِيو ، إِنَّهُ مِثْلُ غُرْبَسِ ! وَالْآنَ
أُحْمَدُ اللَّهَ أَنَّهُ لَمْ يَمُتْ بِيَدِي ! أَذْهَبُ إِلَى أَشْحَارِكَ وَحَصَاكَ وَغَدِيرِكَ ،
وَسَأَذْهَبُ مَعَكَ بِغَضِ الطَّرِيقِ ، ثُمَّ أَعُودُ وَاسْتَطْرُقُ . فَإِنْ لَمْ تَعُدْ هُنَا عِنْدَ
مُتَّصِفِ لَيْلَةِ الْعَدِ ، فَسَأَعْرِفُ أَنَّهُ قُصَصَ عَلَيْكَ ، وَسَأُحَاوِلُ مُسَاعَدَتَكَ . »
صَافَحْتُهُ ، وَشَكَرْتُهُ بِخَرَارَةٍ .

أَخَذْنَا مَعَنَا بَعْضَ الْخُبْزِ وَاللَّحْمِ وَبَدَأْنَا رِحْلَتَنَا . وَكَانَ السُّرْدَابُ مُظْلِمًا
فَقَادَنِي الرَّقِيرُ مِنْ يَدِي ، وَتَعَدَّ فِتْرَةً لِأَحْتِ السَّمَاءِ الزُّرْقَاءَ فَوْقَ رَأْسِي . وَكَانَ
بِهَا نَجْمٌ لَامِعٌ يُطَلُّ عَلَيْنَا وَشَعَرَ كِلَانَا بِجَمَالِ الطَّبِيعَةِ وَرَهْبَةِ اللَّيْلِ ، لِذَا
مَشِينَا فِي صَمْتٍ . ثُمَّ تَوَقَّفَا فِي سِيرِنَا عِنْدَ أَحَدِ الْبُيُوتِ الْقَدِيمَةِ الَّتِي قَالَ
الرَّقِيرُ إِنَّ رَأْسِي تَرَكَ لَهُ فِيهِ شَيْئًا . وَأَنْجَرَ الرَّقِيرُ حَاجَتَهُ ، ثُمَّ سَبَرْنَا حَتَّى وَصَلْنَا

بيربك ، وهماك أعطاني المُسَدَّس الذي كان يملكه ماسكيو
قال : « إِيَّاكَ هَذَا ياجون وَلَكِنْ إِيَّاكَ ، إِيَّاكَ أَنْ تَسْتَعْمَلَهُ إِلَّا عِنْدَ لُصْرُورَةِ
الْقُصْوَى ، وَإِذَا اسْتَعْمَلْتَهُ فَضَوِّئْهُ إِلَى نَقْطَةِ مُخْمَصَةٍ . »

أَسْرَعْتُ الْخَطَى وَوَصَلْتُ الْمُرْتَمِعَ الَّذِي يُطُلُّ عَلَى مَوْبِلِيَّتٍ فِي نَفْسِ
الدَّخْطَةِ الَّتِي تَزْعُتُ فِيهَا الشَّمْسُ ، وَمِنْ هُناكَ رَأَيْتُ الْغَابَةَ وَالْمَنْزَلَ الْعَتِيقَ
وَالْقَرْيَةَ بِأَحْمَعِهَا . وَظَهَرَ الرُّؤْلُ وَنَهَرُ فِلِيَّتِ وَالْحَرُّ مِنْ عَلَى بُعْدٍ وَتَمَلَّكَنِي
شُعُورٌ غَرِيبٌ ، هُوَ مَزِيحٌ مِنَ الْفَرَحِ وَالْأَسَى وَالْحَيْنِ ، عِنْدَمَا رَأَيْتُ مَوْبِلِيَّتَ
مَرَّةً ثَانِيَةً . وَتَدَأَتْ حَرَارَةُ الشَّمْسِ فِي الْارْتِفَاعِ تَأْخُذُ طَرِيقِي فِي الْعَاةِ ،
وَاحْتَفَيْتُ فِي مَكَانِي الْقَدِيمِ الْمُفْصَلِ لَأَرَأَيْتُ مَنْزَلَ مَاسْكِيو

وَقَفْتُ فِي خَيْرَةٍ ، لَا أَجْرُؤُ عَلَى طَرُقِ الْبَابِ فَرُبَّمَا يَتَعَرَّفُ الْخَدْمُ عَلَيَّ .
وَبَيْنَمَا كُنْتُ أَكُلُ قِطْعَةً خُبْزٍ فَكَّرْتُ فِي كُلِّ شَيْءٍ . وَفِي السَّاعَةِ الْعَاشِرَةِ بَهَضْتُ
مِنْ مَكَانِي ، وَسَلَكْتُ الطَّرِيقَ إِلَى الْمَنْزَلِ . وَبِالرَّغْمِ مِنْ أَنِّي كُنْتُ مُتَأَكِّدًا
أَنْ أَحْدَا لَنْ يَعْرِفَنِي فِي هَذِهِ الْمَلَاسِ فَقَدْ كُنْتُ خَائِفًا . وَوَقَفْتُ بِالْبَابِ ،
وَقَرَعْتُ الْجَرَسَ وَانْتَظَرْتُ بَرْهَةً . وَلَمَّا هَمَمْتُ أَنْ أَقْرَعَ الْبَابَ ثَانِيَةً ، سَمِعْتُ
وَقَعَ أَقْدَامٍ مُقْبِلَةٍ وَصَوْتًا يَسْأَلُ : « مَنْ بِالْبَابِ ؟ »

أَدْرَكْتُ أَنَّهُ صَوْتُ غَرِيسَ ، وَكِدْتُ أَنْادِيهَا بِاسْمِهَا ، وَلَكِنِّي أَحْجَمْتُ خَوْفًا
مِنْ أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ شَخْصٌ آخَرُ مُوجُودًا مَعَهَا ، فَاحْبَبْتُ . « أَنَا غَلامٌ مَسْكِينٌ
ضَلُّ طَرِيقَهُ . »

فَتَحَّتْ غَرِيسُ الْبَابَ وَنَظَرَتْ إِلَيَّ كَمَنْ يَنْظُرُ لِغَرِيبٍ وَسَأَلَتْنِي : « إِلَى أَيْنَ
كُنْتَ ذَاهِبًا ؟ »

أَجَبْتُ : « أَنَا صَبِيٌّ يَعْمَلُ فِي مَزْرَعَةٍ ، وَقَدْ أَتَيْتُ مِنْ بِيرَبِكَ سَائِرًا عَلَى
قَدَمَيَّ أَبْحَثُ عَنْ نُزُلٍ يُدْعَى نُزُلُ « وَابْنُط » بِدِيرَةِ شَخْصٍ يُدْعَى الزُّفِيرُ بُلُوك .
فَظَهَرْتُ عَلَى وَجْهِهَا عِلَامَاتُ الدَّهْشَةِ وَنَظَرْتُ إِلَيَّ مُدَقِّقَةً النَّظَرَ مُسْتَطِلَعَةً ، ثُمَّ
قَالَتْ : « يُمَكِّنْكَ أَنْ تَرَى النُّزْلَ مِنْ هُنَا إِذَا صَعِدْتَ هَذِهِ الدَّرَجَاتِ الْقَلِيلَةَ .
وَلَكِنْ النُّزْلُ أُغْلِقَتْ أَبْوَابُهُ مِنْذُ شَهْرَيْنِ ، وَقَدْ رَحَلَ الزُّفِيرُ . »

اسْتَدَارَتْ نَحْوَ السُّلَمِ وَتَبِعَتْهَا . وَحِينَ ابْتَعَدْنَا قَلِيلًا عَنِ الْبَابِ قُلْتُ
بِصَوْتٍ خَافِتٍ : « غَرِيسُ ! أَنَا جُونُ تَرِنْشَارْد ، أَتَيْتُ لِأَرَاكَ قَبْلَ أَنْ أَرْحَلَ عَنْ
مَوْبِلِيَّتِ . هَلْ مَعَكَ فِي الْبَيْتِ أَحَدٌ ؟ »

لَوْ كَانَتْ فَتَاةٌ أُخْرَى غَيْرَ غَرِيسَ ، لَصَرَخَتْ مِنَ الدَّهْشَةِ . أَمَّا هِيَ فَقَالَتْ
بِكُلِّ هُدُوءٍ : « لَا يَاجُون ، أَنَا وَحْدِي . هَيَّا بِنَا لِلْمَنْزَلِ . »

وَصَلْنَا إِلَى الْمَنْزَلِ وَأَوْصَدْنَا الْبَابَ خَلْفَنَا ، وَتَمَاسَكْتُ أَيْدِينَا ، وَتَشَابَكْتُ
نَظْرَاتِنَا . وَمَرَّتْ لَحْظَاتٌ حُلُوءَةٌ تَنَاجَتْ فِيهَا رُوحَانَا .

قَالَتْ : « لَقَدْ غَيَّرْتَكَ الْأَيَّامُ الْمَاضِيَةُ كَثِيرًا وَأَصْبَحْتَ رَجُلًا . » وَكَانَتْ هِيَ
الْأُخْرَى قَدْ كَبُرَتْ وَصَارَتْ امْرَأَةً نَاصِجَةً ، تُعَادِلُنِي فِي ارْتِفَاعِ الْقَامَةِ ، يَدُ
أَنْ الْمَاسِيَّ الَّتِي عَاشَتْهَا كَسَتْ وَجْهَهَا بِمَسْحَةٍ مِنَ الْحُزَنِ ، وَسَلَبَتْ جَسَدَهَا
بَعْضَ الْوِزْنِ .

نَظَرْتُ إِلَيَّ وَنَظَرْتُ إِلَيْهَا ، ثُمَّ أَخَذَتْنِي إِلَى الْحَدِيقَةِ حَيْثُ جَلَسْنَا مُتَوَارِيَيْنِ
مِنْ خَلْفِ شَجَرَتَيْنِ كَبِيرَتَيْنِ ، وَأَخْبَرَتْنِي بِطَرِيقَةِ الْهَرَبِ إِذَا دَاهَمَنَا خَطَرٌ .

حَدَّثْتُ غَرِيسَ كُلِّ مَا جَرَى ، فَكَتُّ عِنْدَ ذِكْرِ مَضْرَعِ أُمِّهَا ، ثُمَّ مَسَحْتُ
ذُمُوعَهَا ، وَتَفَحَّصْتُ سَاقِي وَاطْمَأْنَنْتُ عَلَى شِفَائِي وَخَدَّيْهَا عَنْ عُثُورِي عَلَى
الْعُلَّةِ الصَّغِيرَةِ وَعَنْ وَرْقَةِ ذِي اللَّحْيَةِ السُّودَاءِ ، وَعَنْ قَرَارِي بِالْبَحْثِ عَنْ
الْمَاسَةِ حَتَّى أَجِدَهَا لِأَصْبَحَ مِنْ أَتْرَى رِجَالِ الْعَالَمِ كُلِّهِ .

قَالَتْ : « أَوَاهُ يَا جُود ! لَا تَفَكَّرْ كَثِيرًا فِي تِلْكَ الْمَاسَةِ . لَقَدْ كَانَتْ فِي
حُورَةِ رَحْلِ شَرِيرٍ ، وَلَنْ تَكُونَ سَبَبًا فِي إِسْعَادِكَ فَإِذَا وَجَدْتَهَا ، اسْتَحْدَمْهَا
لِلْمُسَاعَدَةِ الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ، وَإِلَّا جَرَتْ عَلَيْكَ النَّوَسُ أَيْضًا »
صَحَكْتُ مِنْ قَوْلِهَا ، فَهِيَ لَا تُدْرِكُ أَنَّ سَعْيِي لِامْتِلَاكِ الْمَاسَةِ كَانَ مِنْ
اجْلِ أَنْ أَصْبَحَ ثَرِيًّا لَا يَتَّقَى بِالزَّوْاجِ بِهَا .

حَاءَتْنِي سَعْسَعُ الْخُسْرِ وَاللَّحْمِ ، وَتَعَدَّ تَدَوُّلُ الطَّعَامِ تَرَكَتْنِي لِاسْتَرْيَاحِ
النَّامِ فَقَدْ أَخْبَرْتُنِي بِأَنِّي قَصَيْتُ اللَّيْلَةَ السَّانِقَةَ مَاشِيًا لِلْوُصُولِ إِلَيْهَا وَلَمَّا
اسْتَبَقْتُ وَحَدْتُ غَرِيسَ جَالِسَةً بِيَدِي ، وَكَانَ الْحَوْ أَكْثَرَ تَرُودَةً وَالطَّلَالُ قَدْ
غَطَّتْ كُلَّ شَيْءٍ ، وَأَزِفَتْ سَاعَةُ الْفِرَاقِ .

أَعْطَنِي حُزْرًا وَلَحْمًا وَلَسًا وَقَالَتْ : « يَا حُونَ ، سَتَحُوتُ الْحَارَ وَرُبَّمَا تَعُودُ
إِلَى مُوْتَقَلَبَتٍ ، وَمَهْمَا انْقَطَعَتْ عَنْهَا فَسَاطِلُ أَصْعُ شَمْعَتِي الْمُصَاءَةِ فِي
الْمَافِدَةِ ، كَمَا وَعَدْتِكَ مِنْ قَبْلُ فَإِذَا أَتَيْتَ إِلَى هَذِهِ الشَّوَاطِئِ وَرَأَيْتَهَا فَاعْلَمْ أَنِّي
عَلَى قَبْدِ الْحَيَاةِ فِي انْتِظَارِكَ ، وَإِنْ لَمْ تَرَهَا فَاعْلَمْ أَنِّي فَارَقْتُ الْحَيَاةَ سَاطِلُ
أَفَكَّرُ فَيْكَ حَتَّى عَوْدَتِكَ » .



الفصل السادس عشر

في القلعة

عُدْتُ إلى الكهف في ساعة متأخرة من الليل ، وكانت الليلة التالية هي
ميعاد وصول السفينة نوافشور . وعندما وصلت ، أرسلت لنا قارباً يحمل
غذاءً من الرجال . وكنت أعرف بعضهم . وشعرت وقتها بألم الفراق لترك
شواطئ دورست العزيزة والكهف الذي آواني شهرين .

وصلنا في اليوم التالي إلى كاور ومنها سبنا إلى كاربستروك ، ونزلنا في
نزل نجل حيث تناولنا طعاماً ، ثم نمت . وكنت نمت بالنوم في فراش
مريح بعد معاناتي من النوم فوق الرمال .

كان الزفير يقضي معظم اليوم في الخارج ، أما أنا فاعتكفت في غرفة
خلفية في المذبح أتصفح ما كان بها من كتب .

ذهب الزفير عدة مرات إلى القلعة ، وعرف أنها كانت تستعمل لسجن
أسرى الحرب الفرنسيين . نشأت صداقة بينه وبين أحد الحراس ، فدخل
بمساعديته القلعة وتأكد من وجود البئر بها .

و ذات مساء كنت جالساً في حديقة الزل الخلفية ، وجاء الزفير وقال :
« لقد حاولت أن أجد وسيلة تصل بها إلى البئر دون علم أحد ، فلم أوفق .

وهناك حارس اضطرت أن أطلعه على قصدينا ، رغم أنني لا أثق به ، ووعد
بأن يسمح لنا بتزول البئر ، على أن نعطيه ثلث مقدار ما سوف نحده . وعداً
في الساعة السادسة صباحاً سيفتح لنا بوابة القلعة ، وسندخلها متكررين في
زني عاملين حضراً لترميم جدار البئر من داخلها . »

في الصباح التالي توجهنا إلى القلعة ونجئ نرتدي ملابس عاملين .
وكان المطر يهطل ، فوجدنا الحارس في انتظارنا ، وفتح البوابة حال وصولنا
قائلاً : « صباح الخير . أدخلنا لتشرباً شيئاً قبل البدء في العمل . »

شكرناه معتذرين عن الشراب وأبدينا رغبتنا في العمل فوراً .
سار الرجل ونحن نتبعه حتى عبرنا فناء فتح في آجره باباً بمفتاح كان
يحملة . ودخلنا فناء أصغر أقيم في وسطه مبنى خشبي مربع ، ثم فتح الرجل
باب هذا المبنى بمفتاح صغير وبعد أن دخلناه أغلق الباب .

لم نطمئن نفسي إلى ذلك الرجل . وقد قيل إن الحوهرة تجلب الشقاء
على كل من يملكها ، وشعرت بأن هذا الرجل سينجر علينا المتاعب بعد أن
نجدها .

كان في وسط البئر دلو كبيرة معلقة ، مذهب الزفير يده إليها وسحبها جانباً ،
وقال وهو ينظر إلي : « سأجلس في هذه الدلو وسينرني هذا الرجل الطيب
داخل البئر برفقي . وسوف أمسك بهذا الحبل وطوله ثمانون قدماً بالصبيط ،

وعندما أصل إلى نهاية الخنل في البئر ، سأبادي عليكما كي تتوقفا عن
الاستمرار في إنزالني . »

لم تعجني تلك الحطة ، وشغرت بغدم الازتياح لوجودي وخدي مع
ذلك الرجل فقلت : « لا ، لا . دعني أنا أهبط بالدلو فانا اصغر منك حجما
وأحف وزنا ، وتبقى أنت هنا مع هذا السيد وتعاوننه . »

وافق الزفير ، ولكن الرجل قال بحدة و غضب : « الحطة الأولى أنسب
بكثير . »

نظرت إلى الزفير محاولاً أن أنقل إليه نظراتي ما كان يدور بخاطري ،
ففهم الزفير قصدي ووافق على خطتي ولم يأنه برأي الرجل .

سألت الزفير : « هل أنت متأكد من أن الهواء في البئر غير فاسد ؟ »
أجاب : « نعم . فقد أنزلت شمعة مشتعلة في البئر أمس ، فطلت
تحترق بلهب وضياء حتى وصلت إلى القاع ، وما دامت الشمعة تحترق
فلا بد أن يكون الهواء صالحا ، إلينا بشمعة أيها السيد . »

أخضر الرجل شمعة وثبتها على قطعة حشب وأرلها في البئر بعد أن
أصاءها ، فطل نورها يصغر شيئا فشيئا حتى أصبح قيسا ضعيفا ينبعث من
نقطة . وأخيرا رأيت الضوء ينعكس على الأمواج الصغيرة التي تغلو سطح
الماء . عندما وصلت الشمعة إلى القاع ، سحب الرجل الشمعة ثم قذف

حجرا في البئر . وفي منتصف المسافة اصطدم الحجر بجدار البئر وأخذ
ينارح من جانب إلى جانب محدثا صوتا عميقا كصوت أمواج البحر
المتكسرة على الشاطئ .

صوت إلي الرجل نظرة وكأنه يقول : « هكذا سيكون صوت سقوطك . »

وسألي الزفير : « أوائق أنت بأنك قادر على أن تقوم بهذه المهمة ؟ إنني
أفصل أن تصيع جواهر العالم بأسره ، على أن تضيع أنت ! »

قلت : « لا تخف . »

الفصل السابع عشر

في البئر

كانت الدلو كبيرة ، وكان نزولي بها يبطئ مريحاً ورحت أنفحص جذران البشر أثناء نزولي من غير أن أترك الحبل . وبدأ الضوء يقل تدريجياً حتى أصبحت قوهة البشر فوقى تبدو بيضاء مستديرة كالقمر . وعند نهاية الحبل - وكنت قد وصلت إلى عمق ثمانين قدماً - ناديت عليهما كي يتوقفا . وتطلعت حولي ، فلم أجد شيئاً ، فقد بُنيت جذران البشر بمكعبات صغيرة من الخمر ، وبذت كلها متشابهة .

نقد صبر الرجل وصرخ في : « ماذا تفعل ؟ هل وجدت شيئاً ؟ هل وجدت المكان ؟ »

قلت : « لا ، لا أرى شيئاً هنا . » وسألت الزفير : « هل أنت واثق أن طول الحبل يبلغ ثمانين قدماً ؟ »

وسمعتُهُما يتجادلان ، وإن كنت لم أتبين حديثهما . ثم قال الزفير بصوت مرتفع : « يقولون إنهم قاموا بتعليق الأرض هنا ، فاهبط وانحث عند مستوى أعظم . »

وبدأت الدلو تهبط بي ثانية ، وسمعت أصواتاً تتبعني من قاع البئر ، كما

لو كان الموتى يقومون بحراسة الجوهرة وقد أفلقهم وجودي .

وبينما كانت الدلو تهبط بي لمحت حجراً نُقشت عليه علامة (٧) ، فأيقنت أنني قد وصلت إلى غايتي .

ومددت يدي ، ولكنني لم أستطع أن ألمس الحجر لبُعدي عنه ، فطلبت سحب الدلو إلى الجهة المقابلة ، وبدأت في إزالة الحجر . وكان الرجل يصرخ من أعلى قائلاً : « ماذا تفعل ؟ هل وجدت شيئاً ؟ » وأثار إلحاحه في السؤال غضبي ، وتعمقت لسكوت الزفير . ثم أزلت الحجر وضعت يدي في الثقب الذي تركه الحجر ، فعثرت على كيس صغير نحستته فشعرت بشيء مستدير صلب بداخله . وعندما فتحتُه وجدت في يدي الماسة المنشودة .

لم أكن رأيت في حياتي من قبل ماسة كبيرة أو صغيرة . ولكنني كنت أشعر أن ما بيدي لابد أن يكون أثمن ماسات العالم كله وأجملها .

وعندما كان نور الشمعة ينعكس على سطح الماسة كانت تسطع منها أشعة ملونة متألقة تبهر النظر ، فوقفت أتأملها وقد مررت بالأحلام بخاطري : هل سأصبح رجلاً ثرياً وأعود إلى مونفيليت لأخطي بغريس زوجة لي ؟ وافقت من أحلامي على صوت الرجل يقول : « ألم تجد شيئاً بعد ؟ »

فصرخت فرحاً : « بلى ! بلى ! لقد وجدتُها . »

صَبَدْتُ بِي الدَّلُو أُسْرِعَ مِمَّا كَانَتْ تَهْطُ . وَتَخَيَّلْتُ أَنِّي أَسْمَعُ غَرِيسَ
تَقُولُ : « لَقَدْ كَانَتْ الْمَاسَةُ فِي حَوْزَةِ رَحُلٍ شَرِيرٍ ، وَلَرَّ تَحَلَبْتُ لَكَ سِوَى
الشَّقَاءِ » ثُمَّ تَوَقَّعْتُ الدَّلُو بِي قُلْ أَنْ أَصِلَ إِلَى حَافَةِ الْبِشْرِ ، وَسَأَلَ الرَّحُلُ
بِلَهْفَةٍ : « أَتَيْنَ الْمَاسَةَ ؟ أَيْنَ الْمَاسَةِ ؟ أَعْطِنِي بِهَا » .

وَرَأَيْتُ وَجْهَ الزَّفِيرِ يُطْلُ مِنْ أَعْلَى ، فَامْسَكَتُ بِالْمَاسَةِ بَيْنَ أَصَابِعِي لِأَرْنِهَا
لَهُ وَكَذَبْتُ أَنْ أُنَاقِلَهَا لِلْحَارِسِ ، وَلَكِنْ شَيْئًا مَا فِي نَظَرَتِهِ أَوْقَفَنِي وَتَذَكَّرْتُ
عِلَاءَ الدِّبْنِ الَّذِي رَفِصَ تَسْلِيمَ الْمِصْصَاحِ حَتَّى يَأْمَنَ وَصُولُهُ عَلَى سَطْحِ
الْأَرْضِ .

قَالَ الرَّحُلُ : « مِنْ الْأَفْصَلِ أَنْ تُنَاقِلَنِي الْمَاسَةَ الْآنَ حَتَّى تَتِمَكَّنَ يَدَاكَ مِنَ
الْإِمْسَاكِ بِالدَّلُو » .

قُلْتُ : « لَا ، لَا . دَعْنِي أَصْعَدُ أَوَّلًا » .

فَصَرَخَ غَاظِبًا : « أَعْطِنِي الْحَوْهَرَةَ » .

فَانْتَهَرَهُ الزَّفِيرُ قَاتِلًا : « دَعْنِي بِتَصَرُّفٍ كَمَا يَشَاءُ . إِنَّهَا حَوْهَرَتُهُ يَفْعَلُ بِهِ مَا
يُرِيدُ ، وَسَيَكُونُ لَكَ ثُلُثُ الْمَلْعِ الَّذِي سَخَصُلُ عَلَيْهِ نَعْدَتُيْهَا ، كَمَا سَبَقَ
أَنْ وَعَدْتُكَ » .

رَدَّ الرَّحُلُ عَاضًا : « هَذِهِ الْحَوْهَرَةُ لَيْسَتْ مَلَكًا لَائِي مَكُومًا . فَالْبِشْرُ شَرٌّ ،
لَقَدْ سَمَحْتُ لَكَ بِالْهُسُوطِ فِيهَا عَلَى أَنْ تَقْسِمَ ثَمَنَ الْحَوْهَرَةِ نَعْدَتُيْهَا ، أَمَّا

هذا الصبي فتكفيه قطعة نفود ذهبية .

رد الزفير غاضبا : « لا تكن غبيا ، إن هذا الصبي سيأخذ نصيبه كاملا . »
قال الرجل ساخرا : « ها ، ها ! من منا الغبي ؟ أنا أم أنت ؟ إني أعرف
أن اسمك الزفير وأن هناك مكافأة بمبلغ خمسين جنيها لمن يقبض عليك ،
وكذلك مكافأة بمبلغ عشرين جنيها لمن يقبض على الصبي . إنكما
سجينان هنا ولن تتركا هذه الغرفة حتى تكون الماسة في قبضة يدي . »

أحقيت الماسة في مامن داخل ملاسي وعزمت أن أناضل من أجلها بكل
ما في وسعي .

نظرت إلى أعلى فإذا بالرجل يشهر مسدسه ، فصرخت بالزفير محدرا ،
فهذه الرجل قائلا : « لو تحركت فسأطلق عليك النار ، وأفوز بجائزة
الخمسين جنيها . » ثم أطلق النار .

كان الزفير واقفا على الجانب المقابل له من البئر . وأيقنت أن الرجل
لا بد أن يصيبه لقرب المسافة بينهما ، إلا أن الرصاصة طاشت وأصابت
جانب البئر ونجا الزفير ، وألقى بنفسه على الرجل وأحاط عنقه بيديه
ضاغطا عليه . وكان الرجل أصغر سنا من الزفير ، ولكن الزفير كان يفوقه قوة
ومهارة .

ونشب بينهما صراع رهيب ، وكان الزفير يناضل بضال الحياة أو الموت .

واستطعت الخروج من البئر بمشقة ، وأيقنت أن الزفير لم يعد في حاجة

لمساعدتي . فقد كانت تلوح على وجه الحارس سمات الإغياء والدهشة ،
فمذ كان يتوقع فوزا سهلا . فإذا به أمام خصم جبار عنيد . وأمسك الزفير به
ورفعه ليلقيه على الأرض ولكن الرجل طوقه بذراعيه ، محاولا أن يقبض على
عنقه بيديه ، فدفعه الزفير على الأرض فلم يسقط بل تقهقر بضع خطوات
أوصلته إلى حافة البئر المسئلة ، فانزلقت قدماه وهوى بجسده . وحاولت
إنقاذه من السقوط في البئر فلم أفلح ، إلا أن يدي أمسكت بالمفاتيح التي
كانت معلقة في جانبه ، فبقيت في يدي وسقط الرجل في البئر . وسمعنا
صوت ارتطام جسمه بالماء ، ثم أعقبه صمت رهيب .

قفز الزفير بسرعة في الدلو قائلا : « ساعدني في الهبوط لأحاول إنقاذه . »
فصعلت ، ووقفت فوق حافة البئر أنظر منصتا إلى أن صرخ يقول : « دعي
أصعد . »

صعد ولم ينطق بكلمة واحدة ، وأدركت أن الرجل قد مات ، فقلت :
« دعنا نلقي بالماسة وراءه فهي لا تجلب إلا الموت والشؤم . »

قال الزفير : « لا ، أعطني إياها . إنها خوفرتك وسأحتفظ بها لك ،
فلست بحاجة للمال . » وأخذها مني .

وصلنا إلى التزلز ساعين ، ولم نقص على صاحب التزلز ما حدث ،
بل قلنا له إن أعمالنا تحتم علينا سرعة الرحيل ، فأخبرنا بوجود سفينة هولندية
توشك على الإقلاع إلى هولندا .

الفصل الثامن عشر

ضياغ الماسة

أبحرنا إلى هولندا ، فوصلنا إلى لاهاي ، وهي خير مكان في العالم لتجارة الماس . وكان الزفير ملما ببعض كلمات اللعة الهولندية . ونذا يطوف في المدينة بحثا عن رجل يمكنه شراء الماسة . وأخيرا سمع عن شخص يدعى الدوبراند ، من أشهر تجار الماس وأغناهم في لاهاي .

ذهبنا إلى منزله ذات مساء ، قبل الغروب بساعة تقريبا ، فوجدنا المنزل مكوّنا من مبني منخفض الجدران ، مطلي باللون الأبيض ، نوافذه حضراء ، وله حديقة خلفية وتتعد عن الشارع قليلا ، ووضعت على واجهته لافتة تقول : « محل تجارة : بيع وشراء للماس » .

فتح لنا الباب خادم طويل القامة قوي البنية ، ولما علم مطلبنا ذهب ليخبر سيده . وبعد بضع دقائق حضر الدوبراند نفسه ، وكان ضئيل الحجم في حوالي السبعين من عمره .

قال : « مرحبا بكما . سمعت أن معكما جوهرة للنسج ، وأنا لا أشتري الجواهر العادية ، ولا أريد أن أرى ما معكما إلا إذا كان حقا ثمينا نادرا . »

كانت الماسة في يدي فسلمتها له . تغيرت ملامح وجهه عندما أخذها

وشعر بثقلها ، ثم أمسكها بين أصابعه وقال بصوت متهدج : « الضوء هنا لا يكفي ، تعاليا معي . »

تبعناه إلى غرفة في الطابق العلوي نطل نافذتها على الحديقة الخلفية . منها بدت أشعة الشمس العارسة .

جلس الدوبراند إلى منضدة وأمسك بالماسة وأخذ يتفحصها بدقة في ضوء أشعة الشمس . وكنت مواجهها له ولم أشعر نحوه بارتياح ، وفجأة نظر إلي قائلا : « ما اسمك يا فتى ، ومن أين أتيت ؟ » وبكل سداجة أجبت ،



فَرَكَلْنِي الزَّفِيرُ يُحَدِّثُنِي وَلَكِنْ بَعْدَ فَوَاتِ الْأَوَانِ . وَكَتَبَ الرَّجُلُ اسْمِي وَاسْمَ
مُونِفِيلِت ، وَبَدَا ذَلِكَ وَقْتُهَا شَيْئًا تَافِهُمَا ، وَلَمْ أَدْرِ بِأَنَّ ذَلِكَ سَيَكُونُ نَقْطَةً تَحْوِلُ
هَامَةً فِي مَجْرَى حَيَاتِي ، بَعْدَ ذَلِكَ .

رَدَّدَ الرَّجُلُ اسْمَ مُونِفِيلِت ثُمَّ سَأَلَ : « وَكَيْفَ حَصَلَتْ عَلَى هَذِهِ
الْخَوْهَرَةِ ؟ » وَأَسْرَعَ الزَّفِيرُ يَقُولُ : « لَمْ نَحْضُرْ هُنَا لِلْاِسْتِجَابِ ، بَلْ لِبَيْعِ
الْجَوْهَرَةِ ، فَهَلْ تَسْمَحُ وَتُحِبُّرُنَا بِمَا تُقَدِّرُهُ ثَمَنًا لَهَا ، وَكَفَاكَ أَنْ تَعْرِفَ أَنَّ
إِنْجِلِيزِيَّانَ ، وَأَنَّ هَذِهِ الْمَاسَةَ مِلْكُ شَرْعِي لَنَا . »

قَالَ الرَّجُلُ : « نَعَمْ ، نَعَمْ . وَلَكِنْ يَجِبُ أَنْ أَفْحَصَهَا جَيِّدًا ، لِأَنِّي أَجْهَلُ
مِنْ أَتَيْنَ أَتَيْتَ بِهَا ، فَقَدْ تَكُونُ مُزَيَّفَةً . » ثُمَّ صَبَّ عَلَيْهَا نَعْضَ نَقْطٍ مِنْ سَائِلِ
أَخْضَرِ اللَّوْنِ وَحَكَّهَا بِحَجَرٍ أَسْوَدَ ، وَحِينَئِذٍ تَحْمَدَتْ أَسَارِيرُهُ وَكَانَهَا قَدْ قُدَّتْ
مِنَ الصُّخْرِ .

قَالَ : « اسْمَعَا ، وَخَاصَّةً أَنْتَ يَا جُونُ ، يُؤَلِّمُنِي أَنْ أَخْبِرَكَ أَنَّ هَذِهِ
الْمَاسَةَ لَيْسَتْ حَقِيقَةً بَلْ هِيَ قِطْعَةٌ زُجَاجٍ صُنِعَتْ بِمَهَارَةٍ فَائِقَةٍ ، وَبِمَكْنَتِي
الْقَوْلُ بِأَنَّهَا أَفْضَلُ قِطْعَةٍ مُزَيَّفَةٍ رَأَيْتُهَا . »

الْمَنِي أَنْ يَكُونَ مَا عَانَيْنَاهُ مِنْ مَشَاقٍ وَمَتَاعِبٍ مِنْ أَجْلِ قِطْعَةٍ مِنَ الزُّجَاجِ
لَقَدْ ضَاعَتْ أَحْلَامِي بِالسَّعَادَةِ وَالشَّرَاءِ . وَشَعَرْتُ بِخَيِّبَةِ أَمَلٍ شَدِيدَةٍ ،
وَأُطْلِمْتُ الدُّنْيَا فِي وَجْهِي وَكَذْتُ أَسْقُطَ عَلَى الْأَرْضِ ، فَأَسْرَعَ الرَّجُلُ
يَقُولُ : « جُونُ ، جُونُ يَا بُنَيَّ لَا تَحْزَنْ هَكَذَا ، إِنَّهَا قِطْعَةٌ فَنِيَّةٌ رَاضِيَةٌ وَسَأُعْطِيكَ
عَشْرَ قِطَعٍ مِنَ الْفِضَّةِ ثَمَنًا لَهَا . »

قَالَ الزَّفِيرُ : « لَمْ نَأْتِ إِلَيْكَ نَطْلُبُ فِضَّةً ، فَاحْتَفِظْ بِالْفِضَّةِ لِنَفْسِكَ ، وَأَمَّا
هَذِهِ فَلَا تَرَعُبْ فِيهَا أَيْضًا . » وَأَخَذَ الْمَاسَةَ وَأَلْقَى بِهَا مِنْ النَّافِذَةِ .
هَبَّ أَلْدُوْبِرَانْدُ مَذْعُورًا سَاخِطًا يَقُولُ : « يَا أَحْمَقُ ، مَاذَا فَعَلْتَ ؟ »

رَأَيْتُ الْمَاسَةَ تَقَعُ فِي الْحَدِيقَةِ بِالْقُرْبِ مِنْ زَهْرَةٍ كَبِيرَةٍ حُمْرَاءَ . وَخَرَجْنَا
مِنَ الْمَنْزِلِ مُسْرِعِينَ صَامِتِينَ وَعُدْنَا إِلَى النَّوْلِ لِتَنَاوُلِ الطَّعَامِ . وَبَيْنَمَا كُنَّا
نَأْكُلُ نَهَضْتُ فَحَاةً وَصَحْتُ فِي الزَّفِيرِ : « إِنَّا حَقًّا غَيِّبَانِ . إِنْ الْخَوْهَرَةُ مَاسَةٌ
ثَمِينَةٌ ، وَلَيْسَتْ مُزَيَّفَةً ، وَقَدْ كَذَبَ عَلَيْنَا ذَلِكَ التَّاجِرُ . »

نَظَرُ إِلَيَّ الزَّفِيرُ مَلِيًّا ثُمَّ قَالَ : « قَدْ تَكُونُ عَلَى حَقٍّ ، وَلَكِنْ مَا الْعَمَلُ إِلَّا
وَقَدْ أَلْقَيْتَ بِالْمَاسَةِ مِنَ النَّافِذَةِ ؟ »

قُلْتُ : « لَقَدْ رَأَيْتُ الْمَكَانَ الَّذِي سَقَطَتْ فِيهِ بِالْحَدِيقَةِ . هَيَّا بِنَا
نَسْتَرِدُّهَا . »

قَالَ : « هَلْ تَنْظُرُ أَنَّ أَلْدُوْبِرَانْدَ رَأَى ذَلِكَ أَيْضًا وَغَرَفَ مَكَانَهَا ؟ » تَدَكَّرْتُ
كَيْفَ أَطَّلَ أَلْدُوْبِرَانْدُ مِنَ النَّافِذَةِ حِينَ سَقَطَتِ الْمَاسَةُ ، وَقُلْتُ : « لَا أَدْرِي
وَلَكِنْ دَعْنَا نَذْهَبُ إِلَى هُنَاكَ لِنَرَى وَنَتَأَكَّدَ . لَقَدْ سَقَطَتْ عِنْدَ سَاقِ زَهْرَةٍ حُمْرَاءَ
كَبِيرَةٍ . هَيَّا بِنَا . »

صَمَتَ الزَّفِيرُ لِحُطَّةٍ وَقَالَ : « أَشْعُرُ بِأَنَّكَ عَلَى صَوَابٍ ، وَأَنَّ الْمَاسَةَ
خَوْهَرَةٌ ثَمِينَةٌ ، وَلَكِنِّي أَشْعُرُ بِأَنَّنا سَنَكُونُ أَسْعَدَ خَطًّا بِدُونِهَا . فَمُنْذُ عَلِمْتُ
بُوحُودِهَا ، وَنَحْنُ لَا نَصَادِفُ غَيْرَ الْمَتَاعِ . وَهِيَ نَحْنُ أَوْلَاءُ غَرِيبَانِ بَعِيدَانِ

عن وطسا وَقَدْ مَاتَ رَجُلَانِ أَفْلَيْسَ مِنَ الْأَفْضَلِ أَنْ تَتْرُكَهَا حَيْثُ سَقَطَتْ ؟
لَكِنِّي أَرَدْتُ اسْتِرْحَاجَ الْجَوْهَرَةِ ، وَأَقْبَعْتُ الرِّقِيرَ بِمَشَقَّةٍ أَنْ يَذْهَبَ مَعِيَ
لَا اسْتِرْدَادَهَا .

كَانَ اللَّيْلُ مُتَأَخِّرًا حِينَ تَسَلَّقْنَا حِدَارَ خَدِيقَةِ مَنْزِلِ الدُّوْبِرَانْدِ وَأَسْرَعْتُ
إِلَى الرَّهْرَةِ الْحُمْرَاءِ ، وَلَكِنْ الْمَاسَةُ كَانَتْ قَدْ اخْتَفَتْ ، فَخَشْتُ حَوْلَ الْمَكَانِ
دُونَ حَذْوِي . لَقَدْ أَخَذَهَا الدُّوْبِرَانْدُ وَشَخَصْتُ بِبَصَرِي إِلَى أَعْلَى فَإِذَا بِسُورٍ
سَعَتْ مِنْ نَافِذَتِهِ .

تَسَلَّقْتُ الْحَائِطَ إِلَى النَّافِذَةِ ، وَتَطَلَّعْتُ إِلَى الدَّاجِلِ ، فَرَأَيْتُ الدُّوْبِرَانْدَ
حَدِسًا أَمَامَ مِئْصَدَةٍ وَأَمَامَهُ الْمَاسَةُ : مَاسَتِي الثَّمِينَةُ وَمَعَهَا عِدَّةُ مَاسَاتٍ أُخْرَى ،
وَلَكِنَّهَا كَانَتْ تَفُوقُهَا جَمِيعًا بِهَاءٍ وَحُجْمًا ، وَكَأَنَّمَا كَانَتْ تُنَادِيَنِي وَتَقُولُ :
« أَنْظُرْ ، أَنَا مَلِكَةٌ عَلَى كُلِّ هَذِهِ ؟ أَلَا تَأْخُذْنِي ؟ »

وَشَعَرْتُ يَدَ الرِّقِيرِ تَجِدُّنِي مِنْ ذِرَاعِي وَهُوَ يَقُولُ : « نَعَلْ ، نَعَلْ .
اتْرُكْهَا فَلَنْ تَجْلِبَ لِمَا سِوَى الشُّقَاءِ وَالْمَتَاعِبِ هَيَّا بِنَا يَا حُونَ . »

وَلَكِنِّي لَمْ أَسْتَمِعْ لِكَلَامِهِ ، وَأَلْقَيْتُ بِنَفْسِي عَلَى النَّافِذَةِ فَسَقَطْتُ دَاخِلَ
الْحُجْرَةِ . وَهَبَّ الدُّوْبِرَانْدُ مَذْعُورًا يُنَادِي : « السُّحْدَةُ ! السُّحْدَةُ ! لُصُوصُ ،
لُصُوصُ » فَاسْرَعْتُ إِلَى الْمِئْصَدَةِ وَوَضَعْتُ يَدِي فَوْقَ يَدِ التَّاجِرِ لِأَمْسِكَ
الْمَاسَةَ ، وَفِي اللَّحْظَةِ نَفْسُهَا أَسْرَعَ سِتَّةَ مِنْ الْخَدَمِ بِالدُّحُولِ وَأَمْسَكُوا
بِهَا .



الفصل التاسع عشر

السجن

قدّمنا للمحاكمة ، ولم يصدق القاضي روايتنا ، ولا ألومنا على ذلك .
وبعد أيام قليلة أودعنا السجن .

مضى علينا أسبوع في السجن ، ثم حضر الحارس صباح يوم وأخذني
إلى كوخ صغير ، وأجلسني على كرسي في وسط الكوخ ، ثم أوثقني
بالجبال وأحكم رباطي إلى الكرسي .

رأيت في أرض الغرفة نارا موقدة ، كما شممت رائحة شيء كريمة فشرعت
بالخوف مما قد يفعلون بي . وصدق شعوري ، فقد وسموا بالنار على وحيي
حرف ٧ وهو أول حرف من الكلمة الهولندية التي سمي بها السجن ، وكانت
كذلك شعار أسرة موهون .

وبعد بضعة أيام التقيت بالزفير ، وكان أيضا يحمل العلامة نفسها .
وهكذا تعاقبت السجون ، وكل يوم مثل سابقه . نخرج للعمل ونعود لنأكل
وننام وننسى .

الفصل العشرون

العاصفة

في السنة العاشرة ، حضر الحراس كعادتهم ، واقتادونا . إلا أنهم لم
سيروا بنا إلى مكان العمل المعتاد ، بل تقابلنا مع فرقة من الجنود وسرنا
معهم إلى لاهاي . وهناك علمنا بأننا ستسجن منها إلى جاوه ، التي تبعد آلاف
الكيلو مترات عن الهند نفسها ، حيث سنعمل في حقول قصب السكر
التابعة للحكومة الهولندية . وبهذا النيا انتهت أحلامي ، فلن أستطيع بعد
دلت رؤية عريس أو العودة إلى مونيبيت . وكنت طوال عشر السنين العاصية
أحلم بالفرار ، وبأنني ساكون حرا ! ولكن ذهبت كل هذه الأحلام هباء .

وأثناء سيري رأيت الزفير وقد ابيض شعره وأصبح كهلا . وتذكرت صورته
في تلك الليلة في هورهد وكيف كان رجلا قويا أسود الشعر شديد العزم
والبطش ، ثم تخيلت عريس جالسة في الحديقة ، وصوتها الحلو يحذرني
من التمسك بالماسية التي تعتقد أنها تجر معها الشقاء والمتاعب ، وهذا
ما حدث فعلا .

أخيرا وصلنا إلى السفينة ، وكم سعدت أن أرى البحر ثانية وأننسم
هواءه ، وكم حزنت لفراق شواطئ قارتنا المحبوبة والرحيل إلى أقاصي
العالم .

مَرَّ عَلَيْنَا يَوْمَانِ عَلَى ظَهْرِ السَّفِينَةِ وَهَبَتْ عاصِفَةٌ هَوْجَاءُ ، وَكَانَ بِالسَّفِينَةِ عَشْرُونَ سَجِيًّا آخَرَ ، وَلَيْسَ بَيْنَهُمْ بَحَّارَةٌ غَيْرُنَا ؛ وَقَدْ تَمَلَّكَهُمْ الْخَوْفُ جَمِيعًا ، وَلَمْ أَبَالِ أَمَّا وَالزَّفِيرُ بِالعاصِفَةِ أَوَّلَ الْأَمْرِ .

اشْتَدَّتِ الرِّيحُ ، وَقَالَ الزَّفِيرُ : « لَقَدْ عَرَفْتُ سَفْنًا أَقْوَى وَأَمْتَنَ مِنْ هَذِهِ السَّفِينَةِ خَطَمَتَهَا عَوَاصِفُ أَقْلٍ حَدَّةٍ مِنْ هَذِهِ العاصِفَةِ . وَاعْتَقَدْنَا أَنَّا مَا زَلْنَا قَرِيبِينَ مِنَ الشَّاطِئِ ، وَأَرْحُو أَلَّا تَدْفَعَنَا الرِّيحُ إِلَيْهِ حَتَّى لَا تَرْتَظِمَ بَصُحُورُهُ . »

وَبَيْنَمَا هُوَ يَتَكَلَّمُ ، فَتَحَ أَبَابُ وَدَخَلَ عَلَيْهَا رَجُلٌ لَمْ يَكُنْ مِنَ الْحُودِ الدِّينِ يُخَصِّصُونَ لَنَا الطَّعَامَ كَالْمُعْتَادِ ، بَلْ كَانَ النَّحَارُ الْوَحِيدَ الَّذِي نَقِي عَلَى السَّفِينَةِ ، ثُمَّ أَلْقَى إِلَيْنَا بِمِفْتَاحٍ وَقَالَ : « حُدُوهُ ، وَاسْرِعُوا وَلْيَكُنِ اللَّهُ فِي عَوْنِكُمْ . »

أَدْرَكَ الزَّفِيرُ مَعْنَى مَا قَالَهُ النَّحَارُ ، وَأَمْسَكَ بِالْمِفْتَاحِ قَائِلًا : « إِنَّ السَّفِينَةَ تَغْرُقُ ، وَقَدْ أُعْطُوا الْفُرْصَةَ لِنَحْوِ أَنْفُسِنَا . » ثُمَّ أَطْلَقَ سَرَّاحَ نَفْسِهِ وَسَرَّاحِي وَسَرَّاحَ الْآخَرِينَ ، وَكَتَبْتُ أَوَّلَ مَنْ ضَعَدَ مَعَ الزَّفِيرِ إِلَى ظَهْرِ السَّفِينَةِ وَوَحَدْنَا أَنْفُسَنَا مَعَ بَقِيَّةِ لُسُجْنَاءِ وَحَدْنَا . أَمَّا الْحُودُ وَالْمَلَّاحُونَ فَقَدْ هَمَّوْا السَّفِينَةَ وَرَكِبُوا قَوَارِبَ صَغِيرَةً لِلنَّجَاةِ .

أَشَارَ الزَّفِيرُ إِلَى شَيْءٍ ، وَصَرَخَ فِي أَذُنِي حَتَّى أَسْمَعَ صَوْتَهُ وَشَطَطَ صَحِيحِ العاصِفَةِ : « نَحْنُ قَرِيبُونَ مِنَ الشَّاطِئِ . »

وَمَرَّتْ مَوْجَةٌ قَوِيَّةٌ قَدَفَتْ بِنَا نَحْوَ الشَّاطِئِ . وَرَأَيْتُ ثَلَاثًا يَغْلُو فِي السَّمَاءِ

دُكْرِي بِمَشْهَدِ رَأْيَتِهِ مِنْ قَتْلِ . لَقَدْ كُنَّا فِي خَلِيجٍ ، وَكَتَبْتُ أَرَى شَاطِئَ ذَلِكَ الْخَلِيجِ حَيْثُ تَلْتَقِي الْأَمْوَاجُ بِالصُّخُورِ .

غَمَزَنِي الزَّفِيرُ فِي يَدِي صَائِحًا : « أَنْظُرْ . » ، فَانْظَرْتُ وَادْرَكْتُ أَنَّ فِي خَلِيجِ مَوْفِلِيَّتِ ، وَرَأَيْتُ وَجْهَ الزَّفِيرِ يَتَهَلَّلُ فَرَحًا وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ : « يَا لِلسَّمَاءِ ! إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ الْوَاسِعَةَ قَدْ أَدْرَكْتَنَا ، وَأَعَادَتْنَا إِلَى أَوْطَانِنَا . إِنِّي أَفْصَلُ الْمَوْتِ هَا فِي خَلِيجِ مَوْفِلِيَّتِ ، عَلَى أَنْ أَعُودَ لِحَيَاةِ السُّجُونِ . وَإِذَا كَانَ الْمَوْتُ سَيَذَرُكُنَا لَا مَحَالَةَ فَلَيْسَ مَعْنَى ذَلِكَ أَنْ نَسْتَسْلِمَ ، وَلَكِنْ دَعَا نُنَاصِلُ مِنْ أَجْلِ الْحَيَاةِ . »

وَقَفَ بَاقِي السُّجْنَاءِ يَرْتَبِعُونَ هَلْعًا ، وَسَجَدَ بَعْضُهُمْ تَوَسُّلًا لِلزَّفِيرِ أَنْ يُسَاعِدَهُمْ ، فِي إِزَالِ الْقَارِبِ الْوَحِيدِ الْمُتَّقِي بِالسَّفِينَةِ ، فَقَالَ الزَّفِيرُ بِصَوْتٍ عَالٍ لِيَسْمَعَ الرُّجَالُ وَشَطَطَ رَمَحَةِ الْأَمْوَاجِ : « إِخْوَانِي ! صَدِّقُونِي ، إِنَّ أَيَّ شَخْصٍ يُخَاطِرُ بِنَفْسِهِ وَيَنْزِلُ الْبَحْرَ فِي ذَلِكَ الْقَارِبِ هَالِكٌ لَا مَحَالَةَ فَإِنِّي أَعْرِفُ طَبِيعَةَ هَذَا الْخَلِيجِ ، وَإِذَا أَرَدْتُمْ الْحَيَاةَ فَابْقُوا عَلَى ظَهْرِ السَّفِينَةِ . فَفِي حُلَالِ نِصْفِ سَاعَةٍ سَنَقْتَرِبُ مِنَ الشَّاطِئِ ، وَمَنْ ثُمَّ سَتَكُونُ لِكُلِّ رَجُلٍ فُرْصَتُهُ فِي إِنْقَادِ نَفْسِهِ . »

لَمْ يَغْبِ الرُّجَالُ بِنَحْذِيرِهِ وَأَخَذُوا الْقَارِبَ ، وَنَزَلُوا السَّحْرَ وَبَقِينَا نَحْنُ الْآثْنَيْنِ وَحَدْنَا عَلَى ظَهْرِ السَّفِينَةِ . وَكَانَ الزَّفِيرُ يَقُودُهَا نَحْوَ الشَّاطِئِ . وَعِنْدَمَا اقْتَرَبْنَا مِنَ السَّاحِلِ ارْتَفَعَ صَوْتُ الْمَوْجِ وَهُوَ يَرْتَظِمُ بِالصُّخْرِ ، وَكَثِيرًا مَا سَمِعْتُ ذَلِكَ الصَّوْتِ مِنْ قَبْلُ ؛ فَكُنْ مِنْ لَيْلَةٍ قَضَيْتُهَا فِي بَيْتِ خَالَتِي وَأَنَا أَسْمَعُهُ !

وَمَرَّتْ فِي مُخَيَّلَتِي أَحْدَاثُ تِلْكَ اللَّيْلَةِ الَّتِي وَقَفْتُ فِيهَا رَاتِسِي وَرِفَاقُهُ يُرَاقِبُونَ
سَفِينَةً تُحَطِّمُهَا الْأَمْوَاجُ ، وَهُمْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى نَجْدَتِهَا ثُمَّ سَمِعْتُ صَوْتَ الزَّفِيرِ
يَصْرُخُ . « أَنْظُرْ ! أَنْظُرْ . هُنَاكَ ضَوْءٌ يَتَلَالَا خِلَالَ الظُّلَامِ وَالْأَمْطَارِ . » وَرَأَيْتُ
ضَوْءًا ، ضَوْءًا يَتَلَالَا كَحَوْهَرَةٍ .

قَالَ الزَّفِيرُ : « هَذِهِ مَنَارَةٌ مَاشِكِيو . » فَأَذْرَكْتُ أَنْ غَرِيسَ لَا تَزَالُ عَلَى قَيْدِ
الْحَيَاةِ وَأَنَّهَا حَافِطَتٌ عَلَى وَعْدِهَا ، وَ مَا زَالَتْ تَتَرَقَّبُ عَوْدَتِي ، وَأَنِّي فِي
الطَّرِيقِ إِلَيْهَا ، وَلَكِنَّهُ طَرِيقٌ مَخْفُوفٌ بِالْمَحَاطِرِ ، يُهْدِدُ بِالْمَوْتِ !

اقْتَرَبْنَا جَدًّا مِنَ السَّاحِلِ وَ مَا زَالَتْ الْأَمْوَاجُ تَغْلُو وَتُزْمَجِرُ قَوْفًا . وَرَأَيْنَا
عَلَى السَّاحِلِ نُورًا أَزْرَقَ ، فَقَدْ كَانَ النَّاسُ يَسْتَعِدُّونَ لِتَقْدِيمِ السُّحَدَاةِ ، وَلَكِنَّا
لَمْ نَسْتَطِعْ رُؤْيَهُمْ بِوُضُوحٍ وَقَعُوا يُرَاقِبُونَ السَّفِينَةَ وَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّهَا تَحْمِلُ
شَخْصَيْنِ فَقَطْ ، وَأَنَّ الشَّخْصَيْنِ مِنَ أَبْنَاءِ بَلَدِنَهُمْ مَوْتِفَلِيَتِ .

أَدَارَ الزَّفِيرُ دَقَّةَ السَّفِينَةِ نَحْوَ النُّورِ الْأَزْرَقِ ، وَعِنْدَمَا اقْتَرَبْنَا مِنَ الشَّاطِئِ
امْتَزَجَ صَوْتُ الرِّيحِ الصَّاخِبَةِ بِصَوْتِ الْأَمْوَاجِ الْمُرْتِطِمَةِ بِالصُّخُورِ ، وَأَخَذْنَا
ضُجَّةً زَهِيَّةً .

قَالَ الزَّفِيرُ : « اسْتَعِدُّ ! » فَأَمْسَكْتُ بِشَيْءٍ مَا وَجَدْتُهُ قَرِيبًا مِنِّي ، وَغَطَّتِ
الْأَمْوَاجُ ظَهَرَ السَّفِينَةِ الَّتِي أَخَذَتْ تَحَطِّمُ قِطْعَةً بَعْدَ قِطْعَةٍ ، ثُمَّ قَالَ الزَّفِيرُ :
« يَجِبُ أَنْ تَتْرَكَ السَّفِينَةَ بَعْدَ الْمَوْجَةِ الْكَبِيرَةِ الْمُقْبِلَةِ . أَنْظُرْ إِلَيَّ ، وَعِنْدَمَا

أَقْفِرْ ، أَقْفِرْ أَنْتَ أَيْضًا ، وَلِيَحْفَظْنَا اللَّهُ . « وَشَدَّ عَلَى يَدَيَّ ، وَوَقَّفَنَا جَنْبًا إِلَى جَنْبٍ نَنْظُرُ ، وَقَدْ بَدَأَ الْمَاءُ يَتَنَا وَيَتَنَ السَّاحِلَ كُتْلَةً بِتِصَاءِ تَفَوُّرٍ وَتَغْلِي .

قَفَرْنَا ، فَوَقَعْتُ عَلَى يَدَيَّ وَرُكْبَتَيَّ فِي بُقْعَةٍ بَلَغَ عُمُقُ الْمِيَاهِ فِيهَا مَقْدَارَ مِثْرٍ . وَعِنْدَمَا وَقَعْتُ رَأَيْتُ صَفًّا مِنَ الرُّحَالِ مُتَشَابِكِي الْأَيْدِي يُحَاوِلُونَ الْوُصُولَ إِلَيَّ . وَسَمِعْتُ بَعْضَهُمْ يَصْرُخُ ، وَكَانَ الزَّفِيرُ بِجَانِبِي فَتَقَدَّمْنَا إِلَيْهِمْ مَعًا وَأَيْدِينَا مَمْدُودَةٌ إِلَى مَنْ أَرَادُوا مُسَاعَدَتَنَا . وَحِينَئِذٍ دَفَعْتَنِي مُوجَةً مِنَ الْحَلْفِ فَسَقَطْتُ وَلَكِنِّي تَعَلَّقْتُ بِقِطْعَةِ خَشَبٍ عَائِمَةٍ ، وَأَقْبَلَ الزَّفِيرُ وَسَاعَدَنِي عَلَى النُّهُوضِ .

دَوَّى صَوْتُ الْأَمْوَاحِ فِي أُذُنِي ، وَسَمِعْتُ صُرَاخَ الْوَاقِفِينَ عَلَى الشَّاطِئِ ، ثُمَّ شَعَرْتُ بِمَنْ يُمَسِّكُ بِيَدِي

الفصل الحادي والعشرون

البيت

مصتُ عدَّةَ ساعاتٍ وأنا غارقٌ في نومٍ عميقٍ ولا أدري بما حوِّلي ، وعندما استيقظتُ وجدتُني راقداً فوق فراشٍ قريبٍ من المدفأة . ورأيتُ رجلين جالسين بالقرب من المنصدة ، وسمعتُ أحدهما يقولُ : « لقد استيقظ ، وسوف يعيش ويخبرنا بقصته . أعطه شرباً ساخناً ، فالليلة باردة جداً . اتعلم أني لم أطأ عتبة هذا النزل منذ تركته الزفير ، أي من حوالي عشر سنوات ؟ »

صرختُ : « أين هو ؟ » وجلستُ وحملتُ اتلفتُ حوِّلي علَّه يكونُ بائناً بالقرب مني .

قال الرجلُ : « هديَّ رؤعت يا هذا ، وعُدَّ إلى الرُّقادِ والنومِ . » ثُمَّ استدارَ إلى الرجلِ الآخرِ وقالَ : « إنه يهذي . »

قلتُ : « كلا ، أنا لا أهذي ! أنا في كامل وعيي ، وأريدُ أن أعرفَ أين الزفيرُ بُلوك ؟ »

تبادلَ الرجلانِ النظراتِ ونهصَ أحدهما وأقبلَ نحوي عندما نطقْتُ اسمَ الزفيرِ بُلوك ، وعرفتُ أنه راتسي .

سَأَلَنِي : « مَنْ أَنْتَ ؟ هَلْ تَعْرِفُ الزَّفِيرَ بُلُوكَ ؟ »

قُلْتُ : « أَلَا تَعْرِفُنِي يَا رَأْسِي ؟ إِنِّي أَتَذَكُّرُكَ رَغَمَ أَنَّنِي تَرَكْتُ هَذِهِ الْبِقَاعَ مُنْذُ أَمَدٍ طَوِيلٍ . بِرَبِّكَ أَخْبِرْنِي أَيْنَ الزَّفِيرُ ؟ »

أَمْسَكَ رَأْسِي بِيَدَيَّ وَانْهَالَ عَلَيَّ بِالْأَسْئَلَةِ : « أَيْنَ وَمَتَى وَكَيْفَ ؟ »

وَلَكِنِّي قُلْتُ : « قَبْلَ أَنْ أَقُولَ أَيَّ شَيْءٍ ، قُلْ لِي أَنْتَ أَيْنَ الزَّفِيرُ . »

قَالَ : « لَا أَعْلَمُ . »

قُلْتُ : « كَيْفَ لَا تَعْلَمُ وَقَدْ كَانَ مَعِي ، وَهُوَ الَّذِي أَنْقَذَنِي وَوَصَلَ مَعِي إِلَى

الشَّاطِئِ ؟ »

عَلَتْ وَجْهَهُ الدُّهْشَةُ وَقَالَ : « مَاذَا تَقُولُ ! لَمْ يَنْجُ مِنْ السَّفِينَةِ أَحَدٌ غَيْرُكَ ،

وَكَنتَ وَحْدَكَ عِنْدَمَا قَذَفَتْ بِكَ الْأَمْوَاجُ إِلَى الشَّاطِئِ . »

عُذِرَ نَعْدَ يَوْمَيْنِ عَلَى جُثَّةِ الزَّفِيرِ عَلَى الشَّاطِئِ ، فَنَقَلُوهَا إِلَى النَّزْلِ

وَوَضَعُوهَا فَوْقَ الْمِنْضَدَةِ نَفْسِهَا الَّتِي وَضَعَتْ فَوْقَهَا جُثَّةَ ابْنِهِ . وَوَقَفَ الرَّحَالُ

حَوْلَهُ صَامِتِينَ ، ثُمَّ انْصَرَفُوا وَاحِدًا بَعْدَ الْآخَرِ . وَكَانَ رَأْسِي آخِرَ مَنْ ذَهَبَ .

وَبَقِيتُ وَحْدِي مَعَ صَدِيقِي وَهَمُومِي وَأَحْزَانِي .

كَانَتْ الْغُرْفَةُ مَغْطَاةً بِالْتُّرَابِ لِأَنَّ أَحَدًا لَمْ يَطْرُقْهَا مُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ الَّذِي

سَقَطَ فِيهِ الدُّبُوسُ . كَمَا كَانَتْ آثَارُ الشَّمْعِ لَا تَزَالُ بَاقِيَةً عَلَى الْمِنْضَدَةِ .

وَجَلَسْتُ بِجَانِبِ الْمِدْفَأَةِ غَارِقًا فِي بَحْرِ مِنَ الْأَفْكَارِ ، وَلَكِنِّي شَعَرْتُ بِلَمْسَةِ

خَفِيفَةٍ ، عَلَى ذِرَاعِي ، فَطَنَنْتُ أَنَّ رَأْسِي قَدْ عَادَ ، وَرَفَعْتُ عَيْنِي فَإِذَا بِي أَرَى

شَابَةً جَمِيلَةً فَارِعَةً الْقَوَامِ وَاقِفَةً أَمَامِي تَقُولُ : « جُون ، حُون ! أَلَا تَتَذَكَّرُنِي ؟ »

أَلَمْ تَرَ الشَّمْعَةَ الْمُضَاءَةَ ؟ أَلَمْ تَتَذَكَّرْ أَنَّ لَكَ فِي هَذِهِ الدِّيَارِ صَدِيقَةً تَتَنَظَّرُكَ ؟ »

تَنَاوَلْتُ يَدَهَا قَائِلًا : « عَرِيرَتِي غَرِيس ! لَمْ أَتَسَّ شَيْئًا ، وَمَا زِلْتُ أَكُنُ لَكَ

كُلُّ حُبٍّ وَاجِلَالٍ . وَلَكِنْ وَاسْفَاهُ لَيْسَ هَذَا بِمَكَانٍ يَسْمَحُ لِي أَنْ أَتَكَلَّمَ عَنْ

الْحُبِّ . فَأَنْتِ سَيِّدَةٌ كَرِيمَةٌ ، وَأَنَا سَجِينٌ أَحْمِلُ وَضْمَةً عَارِ السُّجَنِ . »

وَأَشَرْتُ إِلَى الْعَلَامَةِ الَّتِي فِي وَجْهِهِ .

قَالَتْ : « لَا تَتَكَلَّمْ عَنِ الثَّرَاءِ ، فَالرِّجَالُ لَا يَصْنَعُهُمُ الذَّهَبُ أَوْ الْجَوَاهِرُ .

لَقَدْ عُدْتُ ثَرِيًّا بِالْأَخْلَاقِ وَالشَّرَفِ . »

وَجَلَسْنَا مَعًا بِجَانِبِ الْمَوْقَدِ نَتَخَدَّثُ . وَكُنْتُ أَتَعَجَّبُ مِنْ تِلْكَ الْمَرْأَةِ الَّتِي

اتَّسَعَ قَلْبُهَا الْكَبِيرُ لِحُبِّ رَجُلٍ حَقِيرٍ مِثْلِي .

الفصل الثاني والعشرون

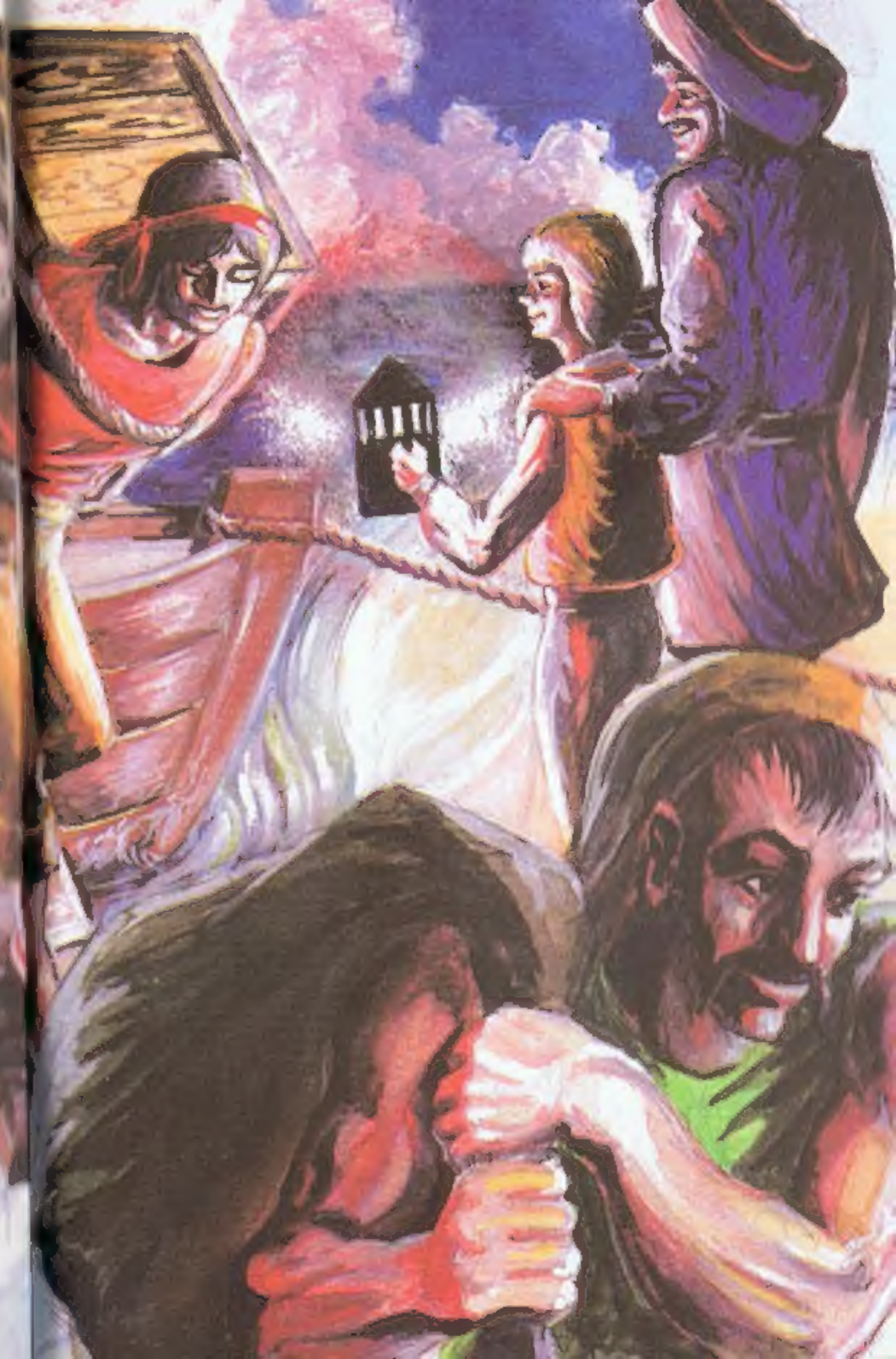
الخاتمة

لَمْ يَبْقَ غَيْرُ الْقَلِيلِ مِنَ الْحَدِيثِ عَنِ الْمَاسَةِ وَمَصِيرِهَا . فَقَدْ وَصَلَنِي ،
ذَاتَ يَوْمٍ ، خِطَابٌ مِنْ أَحَدِ الْمُحَامِلِينَ فِي لَاهَايَ يَقُولُ إِنَّ تَاجِرًا يُدْعَى
أَلْدُوبِرَانْدَ أَوْصَى لِي بِشُرُوتِهِ بَعْدَ مَمَاتِهِ ، حَيْثُ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَرَثَةٌ ، وَقَالَ فِي
وَصِيَّتِهِ إِنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَرُدَّ ، لِبُحُونِ تِرْنَشَارْدَ مِنْ مَوْتِفَلِيَتِ ، مَا لَا حَصَلَ عَلَيْهِ عَنْ
طَرِيقِ الْكَذِبِ وَالْخُدَاعِ ، فَقَدْ آتَنَاعَ مِنْهُ مَاسَةٌ وَلَمْ يُعْطِهِ ثَمَنُهَا الْحَقِيقِيُّ ،
وَأَكَّدَ أَنَّ سُوءَ الْحِظِّ لَازِمُهُ بَعْدَ الْحُصُولِ عَلَى الْمَاسَةِ ، وَغَزَا ذَلِكَ إِلَى
الْخُدْعَةِ الَّتِي ارْتَكَبَهَا . وَقَدْ أَرَادَ أَنْ يُكْفِّرَ عَنْ ذَنْبِهِ ، وَيُعِيدَ الْحَقَّ إِلَى
صَاحِبِهِ ، بَعْدَ مَوْتِهِ .

وَهَكَذَا اسْتَرَدَدَتْ ثَمَنَ الْمَاسَةِ ، وَكَمَا نَصَحْتَنِي غَرِيسُ أَنْفَقْنَا كُلَّ مَا وَصَلَ
إِلَيْنَا مِنْ مَالٍ فِي سَبِيلِ الْبِرِّ وَالْإِحْسَانِ .

وَكُنَّا نَنْتَرُهُ أَحْيَانًا فِي الْغَايَةِ ، أَنَا وَزَوْجَتِي غَرِيسُ وَحَوْلَنَا أَطْفَالُنَا الصِّغَارُ :
جُونُ ، وَغَرِيسُ ، وَالزَّفِيرُ . وَفِي وَقْتِ الْغُرُوبِ كَانَتْ أَشِعَّةُ الشَّمْسِ تَقَعُ
عَلَى التَّلَالِ الْمُحِيطَةِ بِنَا ، فَتَكْسُوهَا بِحُلَّةٍ ذَهَبِيَّةٍ خَمْرَاءَ ، وَعِنْدَمَا يَأْتِي اللَّيْلُ
بِخُطَوَاتِهِ الصَّامِتَةِ وَيَنْشُرُ ظِلَالَهُ عَلَى الْمَزَارِعِ وَالْحُقُولِ الْخَضِرَاءِ . كَانَ
يَنْبَعِثُ مِنَ الْبَحْرِ صَوْتُ الْأَمْوَاجِ يُغْلِنُ أَنَّهَا دَائِمًا مُتَقَلِّبَةٌ ، دَائِمًا بَاقِيَةٌ .





الروايات المشهورة

- | | |
|----------------|---------------------------|
| ١ - جين إير | ٤ - دراكولا |
| ٢ - فرانكشتاين | ٥ - لورنا دون |
| ٣ - مونفليت | ٦ - دكتور جيكل ومستر هايد |



مَكْتَبَةُ لُبْنَانَ
سَاحَةُ رِيَّاضِ الصَّلَح - بَیْرُوت

رقم مرجع کمیونتر 01 C 198 103



هذا العمل هو لمشاركة كل منكم ، و هو ليس لأغراض ربحية ولا تجارية ، المشاهدة الأصلية فقط ، الترجمة خدات هذا العمل بعد
قراءته ، و ابتاع نسخة الأصلية لترخصة عند ترونها الأسواق لدعم النشر ريثما .

This is a Fan base production , not for sale or ebay , please delete the file after
reading , and buy the original release when it hits the market to support its continuity